

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

العدد التاسع
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعية - محكمة
1992 م.

- 
- إسهامات
المسلمين في العلوم
 - من تراث الأندلس
 - التنصير في سيراويون
 - واقع المرأة المسلمة
 - طرق تأثير الفكر العربي الإسلامي
في غرب إفريقيا

الوحدة الإسلامية بين النظرية والتطبيق

الدكتور عمر يوسف حمزة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة قطر

الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم جعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا ويتناصروا، ويطوناً وفصائل ليتآلفوا ويتظاهروا.. والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين، ومن بعثه الله رحمة للعالمين.. وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين...

وبعد:

فإن الإسلام بطبيعته يجعل من المسلمين كتلة واحدة، ويخلق بينهم تضامناً فهو يجمعهم على عقيدة واحدة، وعبادة واحدة، وشريعة واحدة، وقبله واحدة، وغاية واحدة.

وأي صدع في هذه الوحدة، وأي هزة في هذا الكيان، يعتبر جريمة ما بعدها جريمة.

(*) بحث مقدم لندوة جريدة الراية - الدوحة - قطر - رمضان 1411 هـ.

إن الفرقة هي القاضية على الدين والدنيا معاً.

قال تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾⁽¹⁾.

وذهب الريح: هو ذهاب القوة القاضية بالضعف والإذلال، ثم الفناء والزوال.

إن الإسلام أعلن براءته من المفرقين:

﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾⁽²⁾.

ويقول جل شأنه: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾⁽³⁾.

وحبل الله هو القرآن، كما ورد في الحديث الصحيح عن ابن مسعود، ولفظه: «إن الصراط محتضر تحضره الشياطين، ينادون: يا عبد الله، هلم هذا الطريق ليصدوا عن سبيل الله، فاعتصموا بحبل الله، فإن حبل الله هو كتاب الله»⁽⁴⁾ وهذا التفسير أولى من غيره، لأن من اعتصم بكتاب الله كان آخذاً بالإسلام.

ولا يظهر تفسير حبل الله بالجماعة والاجتماع، وإنما الاجتماع هو نفس الاعتصام، فهو يوجب علينا أن نجعل اجتماعنا وحدثنا بكتابه، عليه نجتمع، وبه نتحد لا بجنسيات نتبعها، ولا بمذاهب نبتدعها، ولا بسياسات نخترعها، ثم نهانا عن التفرق والانفصام بعد هذا الاجتماع والاعتصام، لما في التفرق من زوال الوحدة، التي هي معقد العزة والقوة وبالعزة يعتز الحق، فيعلو في العالمين. وبالقوة يحفظ هو وأهله من هجمات الموائيين وكيد الكائدين، فهذا الأمر والنهي في معنى الأمر والنهي، في قوله تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾⁽⁵⁾.

(1) سورة الأنفال، آية: 46.

(2) سورة الأنعام، آية: 159.

(3) سورة آل عمران، آية: 103.

(4) رواه الطبراني وإسناده صحيح: انظر زاد المسير في علم التفسير جـ 1 ص 432.

(5) سورة الأنعام، آية: 153.

وفي حديث النواس بن سميان الذي رواه الترمذي وغيره: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتعوجوا وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، قال: فالصراط المستقيم هو الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، والداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن» وهذا الحديث صحيح⁽⁶⁾.

فجبل الله هو صراطه وسبيله، وما أشرت إليه هنا من بيان أنواع التفرق هو السبل التي نهى الله عن اتباعها في تلك الآية.

فكان الله تعالى يقول: «ولا تتفرقوا باتباع السبل غير سبيل الله الذي هو كتابه». فمن تلك السبل المفرقة: إحداث المذاهب والشيوع في الدين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾⁽⁷⁾.

ومنها عصبية الجاهلية وهي التي نزلت الآية التي تفسرها وما معها فيها لما كانت بين الأوس والخزرج من حروب طويلة قضى عليها الإسلام⁽⁸⁾.

وقد ورد النهي عن عصبية الجاهلية في كثير من الأحاديث منها الصحيح والحسن كقوله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ مسلم بغير حق ليهريق دمه»⁽⁹⁾ رواه

(6) أخرجه أحمد في مسنده جـ 4 ص 182 والترمذي جـ 4 ص 35 والحاكم في المستدرک جـ 1 ص 73 وجاء في صحيح الجامع الصغير برقم 3782 وانظر بحوث في أصول التفسير د. محمد لطفي الصباغ، ص 103. المكتب الإسلامي ط 10. 1408 هـ 1988 م.

(7) سورة الأنعام، آية: 159.

(8) انظر: حياة محمد: محمد حسين هيكل ص 223. والسيرة النبوية ص 223. السيد أبي الحسن الندوي، طبعة دار إحياء التراث بقطر.

(9) انظر: صحيح البخاري، بشرح فتح الباري جـ 12 ص 210 - 211 ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة السلفية.

البخاري من حديث ابن عباس وقوله ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية»⁽¹⁰⁾.

وقد اعتصم في هذا العصر أهل أوروبا بالعصبية الجنسية، كما كانت العرب في الجاهلية، فسرى سم ذلك إلى كثير من المسلمين المتأثرين بالأوروبيين، فحاول بعضهم أن يجعلوا في المسلمين جنسيات وطنية لتعذر الجنسية النسبية. ويوجد في بعض البلاد الإسلامية من يدعو إلى هذه العصبية الجاهلية - وهي دعوة فاسدة مناهضة للإسلام⁽¹¹⁾ وهي من مقدمات الخراب والدمار، لا من وسائل التقدم وال عمران، فالإسلام يأمر باتحاد واتفاق كل قوم تضمهم أرض وتحكمهم الشريعة على الخير والمصلحة فيها، وإن اختلفت أديانهم وأجناسهم. ويأمر مع ذلك باتفاق أوسع، وهو الاعتصام بحبل الله بين جميع الأقوام والأجناس لتحقيق بذلك الأخوة في الله، ولذلك قال بعد الأمر بالاعتصام والاجتماع والنهي عن التفرق: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾⁽¹²⁾ يشير إلى ما كان عليه المؤمنون في عصر التنزيل من أخوة الإيمان التي بها قاسم الأنصار المهاجرين أموالهم وديارهم وبها كانوا يؤثرون بعضهم بعضاً بالشيء على نفسه، وهو في خصاصة وحاجة شديدة إلى ذلك الشيء بعد ما كان بينهم في الجاهلية من العداوة والبغضاء وتسافك الدماء، ما هو معروف في جملة لعامة المسلمين وفي تفاصيله الغريبة للمطلعين على أخبارهم المروية والمدونة.

ومنها أن الحروب تطاولت بين الأوس والخزرج مائة وعشرين سنة حتى أطفأها الإسلام وألف الله بين قلوبهم برسوله ﷺ.

فهذه بعض ما أفادهم الإسلام في حياتهم الدنيا، وقد أنقذهم فيما يستقبلون من أمر الآخرة مما هو شر، وأدهى وأمر، وذلك قوله تعالى: ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾⁽¹³⁾.

(10) رواه أبو داود من حديث جبير بن مطعم، وانظر تفسير المنار ج 4 ص 21.

(11) انظر المنار ج 6 ص 10. محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، طبعة ثانية أعيدت بالأوفست.

(12) سورة آل عمران، آية: 103.

(13) سورة آل عمران، آية: 103.

وإنني سأتناول في هذا البحث الوحدة الإسلامية بين النظرية والتطبيق من خلال النقاط التالية :-

- 1- بسقوط الخلافة انفرط عقد الأمة الإسلامية، ومنذ ذلك اليوم لم يلتئم شملها بصورة عملية تجعل منها قوة فاعلة في عالمنا المعاصر.
- 2- سقوط الخلافة الإسلامية كان مخططاً له من قبل أعداء الإسلام.
- 3- العوامل الذاتية التي رسخت ظاهرة الانفصال والفرقة بين شعوب العالم الإسلامي.
- 4- الأمة الإسلامية لها القدرة على إقامة وحدة إسلامية تؤلف بين أبنائها في ظل الأوضاع الدولية المتغيرة.
- 5- مقومات الوحدة بين شعوب العالم الإسلامي.
- 6- الخطوات العملية لتحقيق هذه الوحدة المنشودة.

والله أسأل أن يوفقني لإبراز هذا الموضوع الهام الذي شغل بال كثير من أهل العلم والمخلصين من أبناء المسلمين في شتى بقاعهم والله الهادي إلى أقوم السبل وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

أولاً: نشأة الخلافة وتطورها:

لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، فلم يصدق العرب أنه مات⁽¹⁴⁾ ونسوا أنه رسول قد خلت من قبله الرسل، وغابت عنهم - من هول المفاجأة - آيات تعلمهم أن الله لم يكتب الخلد لأحد من البشر ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾⁽¹⁵⁾ وأن كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

(14) الكامل لابن الأثير ج 2 ص 219. طبعة المطبعة الأزهرية، 1301 هـ وطبعة النجار 1348 هـ.

(15) سورة الأنبياء، آية: 34.

وكان طبيعياً أن يطمع في الخلافة كثيرون، وأن تحاول كل جماعة ترشيح رئيسها ليتولى أمر المسلمين، فكانت الأنصار تميل بالخلافة إلى سيد الخزرج سعد بن عباد⁽¹⁶⁾ لكن الأمر لم يتعد الترشيح، إذ لم يكن سعد هذا قادراً على ضم صفوف الأوس والخزرج، فأضعف القوم خلافهم، ولم يتم لهم ما أرادوا⁽¹⁷⁾ واعتقد بنو هاشم أن الخلافة ينبغي أن تكون فيهم، ورأوا علي بن أبي طالب أحق الصحابة بها، لأنه ربيب النبي وابن عمه وزوج ابنته فاطمة⁽¹⁸⁾ ومن أول الناس إسلاماً، وأوسعهم علماً⁽¹⁹⁾.

والمهاجرون الذين تركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا من مكة إلى المدينة كانوا يريدون الخلافة فيهم⁽²⁰⁾، ويظهرون ميلهم بها إلى أبي بكر الصديق⁽²¹⁾، فهو أول السابقين إلى الإسلام من الرجال⁽²²⁾ وصاحب النبي في الغار بشهادة القرآن، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: لَا تَحْزَنْ، إِنْ اللَّهُ مَعَنَا﴾⁽²³⁾ ووالد زوجته المحببة إلى نفسه عائشة - رضي الله عنها -⁽²⁴⁾ ورفيق النبي ﷺ في مواقف دعوته إلى الله تعالى. وانطفأت الفتنة حينما سمع الصحابة حديثاً يرويه أبو بكر عن النبي ﷺ يقول فيه: «الأئمة من قريش»⁽²⁵⁾ وقد فسر ابن خلدون بأنه ﷺ، راعى ما كان

(16) سيرة ابن هشام 1015/2. تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية وطبعة الحلبي، 1348 هـ - 1930 م.

(17) زد على هذا أن سعد بن معاذ، سيد الأوس، كان قد توفي قبل وفاة النبي ﷺ، انظر ابن هشام ج 2 ص 674.

(18) قارن فرق الشيعة «للنوبختي» ص 2 بالمعارف (لابن قتيبة) ص 70.

(19) الكامل ج 2 ص 37.

(20) الفصل لابن حزم ج 4 ص 97 القاهرة سنة 1928 م وطبعة دار الكتب المصرية سنة 1941 م.

(21) فرق الشيعة «للنوبختي» ص 3. صححه محمد صادق، النجف سنة 1335 هـ.

(22) الكامل (لابن الأثير) ج 2 ص 38.

(23) سورة التوبة، آية: 40.

(24) الكامل ج 2 ص 77.

(25) من حديث رواه أحمد عن أنس ورجاله ثقات، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد 129/5 وقال المنذري في الترغيب والترهيب، إسناده جيد، انظر المتتقى حديث رقم (1299) ورواه أحمد في =

لقريش في عصره من القوة والعصبية التي يرى ابن خلدون أن عليها تقوم الخلافة أو الملك، ولهذا قال بعض أهل العلم: يشترط في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية على من معها لعصرها ليستبوعوا من سواهم، وتجتمع الكلمة على حسن الحماية⁽²⁶⁾.

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - للأنصار: «لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم»⁽²⁷⁾ وحينئذ قال الأنصار: «منا أمير ومنكم أمير» فأبى المهاجرون وبايع عمر وأبو عبيدة أبا بكر⁽²⁸⁾ فاقتدى بهما الأنصار إلا بعض الخزرجيين ثم وافق أكثرهم بما يشبه الإجماع، ولا سيما حين استيقنوا أن الأمر سيكون شورى بينهم وبين المهاجرين⁽²⁹⁾.

وخلف رسول الله ﷺ لأبي بكر في المنطقة الوسطى من الحجاز حكومة واحدة قوية تشتمل على مكة والمدينة وكثير من المناطق المجاورة⁽³⁰⁾ وأنه جعل من رعايا هذه الحكومة «أمة» واحدة ذات شخصية متميزة وكيان أصيل⁽³¹⁾ وأنه أحل في المجتمع الإسلامي رابطة الدين وإخاء المؤمنين محل العصبية البغيضة والشعور القبلي المقيت⁽³²⁾ لكن هذه الوحدة السياسية المثالية أخذت تضعف بعد وفاة الرسول ﷺ ولا سيما بين القبائل التي خضعت للإسلام خضوعاً ظاهرياً وسمت الزكاة «إتاوة»⁽³³⁾ وامتنعت هذه القبائل عن دفع الزكاة إلى أبي بكر وأولئك هم أهل

= حديث آخر بلفظ (الأمراء من قريش) قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، خلا سكت بن عبد العزيز وهو ثقة (193/5) وقال المنذري: رواه ثقات (انظر المنتقى / 1300).

(26) انظر: مقدمة ابن خلدون ج 2، ص 695 - 696 ط. لجنة البيان العربي الثانية بتحقيق د. علي عبد الواحي وافي، وانظر: كيف نتعامل مع السنة النبوية د. يوسف القرضاوي، ص 130.

(27) عمر بن الخطاب (لابن الجوزي) 34 - 35 انظر: «تاريخ عمر».

(28) ابن هشام ج 2 ص 1016.

(29) الكامل ج 2، ص 223.

(30) ابن هشام ج 2، ص 933.

(31) انظر: Encyclopedie de L'islam (Art. Unna) 4/1010.

(32) انظر: الدعوة إلى الإسلام، ص 42 (رنولد) طبعة القاهرة، 1947. ترجمة حسن إبراهيم وعابدين.

(33) الكامل ج 2 ص 238.

الردة⁽³⁴⁾ الذين اضطروا أبو بكر إلى محاربتهم إلا أن يرجعوا إلى الدين ويتعهدوا بإقامة أركانه⁽³⁵⁾ وإلا فلا يهادنون ولا يصالحون⁽³⁶⁾.

وتوفي أبو بكر في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة 13 هـ بعد أن قضى على فتنة المرتدين وأحرز أعظم الانتصارات في حركة الفتوح، فكان بعد رسول الله من أكبر مؤسسي الدولة الإسلامية⁽³⁷⁾.

واستشار أبو بكر - رضي الله عنه - قبل وفاته الصحابة في استخلاف عمر، فحمدوا له ذلك، حتى كأنهم انتخبوا عمر انتخاباً، وكتب لعمر بالخلافة عهداً، تاركاً له بعد وفاته مقاليد الأمور⁽³⁸⁾.

ولا ريب أن عصر عمر هو العصر الذهبي للإسلام، وأنه كمل عهد أبي بكر، وأن عمر نفسه كان أشهر خلفاء المسلمين، وحسبك ما تم من الإصلاح في أيامه ولشؤون الإدارة والمال حتى قالوا: عمر أول من دون الدواوين، فقد سمي للمقاتلين من أهل الحجاز أو من «الروادف» المنضمين إليهم من عرب الجزيرة⁽³⁹⁾ ولعائلاتهم من النساء والصبيان، مرتبات ثابتة عرفت بالعطاء⁽⁴⁰⁾ وقدر ذلك العطاء حسب قرابتهم من النبي ﷺ⁽⁴¹⁾ أو شهودهم بداراً الكبرى، أو حضورهم المواقع المشهورة كالقادسية واليرموك⁽⁴²⁾.

وفكر عمر في الحكم بعده من غير أن يستقر على رأي، ولما طعنه أبو لؤلؤة المجوسي في أواخر سنة 23 هـ ألح عليه والمهاجرون أن يستخلف⁽⁴³⁾، فخاف

(34) الأحكام السلطانية (للماوردي) ص 44. مطبعة الوطن بمصر سنة 1298 هـ.

(35) تاريخ الطبري، ج 1 ص 1881 - 1884. الطبعة الأولى 1901 م.

(36) الأحكام السلطانية للماوردي، ص 46 - 47.

(37) النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، د. صبحي الصالح، ص 260. دار العلم للملايين سنة 1980 م.

(38) الكامل ج 2 ص 292. وقارن بكتاب تاريخ عمر (لابن الجوزي) ص 36.

(39) انظر المصباح المنير 344/1 - 345 للفيومي، طبعة القاهرة.

(40) فتوح البلدان للبلاذري ص 449. شركة طبع الكتب العربية، مصر ط 1319/1 هـ - 1901 م.

(41) الخراج لأبي يوسف ص 50. المكتبة السلفية، ط 2. القاهرة سنة 1952 م وطبعة باريس 1921 م.

(42) الكامل ج 2. ص 350 - 351.

(43) تاريخ عمر لابن الجوزي ص 152.

عاقبة الاستخلاف وقال: «إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني»، وأثر أن يحصر الأمر في ستة من كبار أصحاب النبي ﷺ ليختاروا واحداً منهم فيبايعه المسلمون، وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وأولئك هم أهل الشورى⁽⁴⁴⁾ الذين فوض إليهم التشاور في هذا الأمر الخطير.

وخلع كل واحد من هؤلاء الصحابة نفسه عن اختيار الخليفة وعهد إلى الآخر باختيار الخليفة⁽⁴⁵⁾ حتى انتهى الأمر إلى عبد الرحمن بن عوف، فأعلن في المحرم سنة 24 هـ تولية عثمان بن عفان⁽⁴⁶⁾ وساء بني هاشم ذلك الاختيار. ولم يملكوا أنفسهم من إبداء امتعاضهم لتحامل القوم عليهم⁽⁴⁷⁾ وإن وجد علي نفسه مضطراً لمبايعة عثمان كما بايع من قبل أبا بكر وعمر⁽⁴⁸⁾ وبعد مقتل عثمان - رضي الله عنه - لجأ الناس إلى علي يقولون: أمير المؤمنين فلم يجد بداً من قبول الخلافة وقد عرضها عليه عرب الأمصار وأهل بدر والمهاجرون والأنصار⁽⁴⁹⁾ وأطلق عليه شيعته لقب «الإمام»⁽⁵⁰⁾ وحرّض الثوار علماً على عزل العمال الذين عينهم عثمان، فأذعنوا جميعاً إلا معاوية في الشام الذي علق على المنبر قميص عثمان⁽⁵¹⁾ وطفق يحض الناس على الثار للخليفة المقتول.

وعندما سار علي إلى العراق خرجت السيدة عائشة وأنصارها للقاءه وأخذت تحمس الجند وهي في هودجها على الجمل، ثم عقر جملها وقتل دونه سبعون

(44) الكامل ج 3 ص 152.

(45) الأحكام السلطانية للماوردي ص 9.

(46) مقدمة ابن خلدون ص 166 - القاهرة سنة 1322 هـ وطبعة المطبعة الأزهرية 1348 هـ 1920 م.

(47) قارن بالكامل ج 3 ص 35.

(48) أنساب الأشراف ج 5 ص 22 «للبلاذري» تحقيق غموتين.

(49) المقد (لابن عبد ربه) تحقيق محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة سنة 1940 م مصر.

(50) الكامل لابن الأثير ج 3 ص 98.

(51) الإمامة والسياسة (لابن قتيبة) ج 1 ص 133 ضبحه محمد محمود الرافعي، القاهرة سنة 1322 هـ

1904 م.

رجلاً، وعرف هذا اليوم بموقعة الجمل⁽⁵²⁾ وأعاد علي عائشة إلى مكة محاطة بالتكريم⁽⁵³⁾ وتابته هي إلى الله أسفاً على ما أريق من دماء المسلمين⁽⁵⁴⁾.

ثم كان يوم صفين، وتحكيم الحكامين، ثم بداية الوهن، وتصعد الصفوف بين أتباع علي، وعرف معاوية كيف ينتهز الفرصة بإثارة الاضطرابات في أرجاء البلاد⁽⁵⁵⁾ فازدادت نغمة الخوارج، وقرروا قتل معاوية وعلي، فلم ينجحوا في قتل أولهما، أما علي فقتله عبد الرحمن بن ملجم في المسجد في شهر رمضان وهو يردد: «الحكم لله لا لك يا علي»⁽⁵⁶⁾ وبمصرعه انتهت خلافة الراشدين، وخلا الجو لمعاوية ليعلن خلافته بالشام، ويدخل على نظام الحكم مبدأ الوراثية الذي ينافي روح الإسلام⁽⁵⁷⁾.

وعندما فكر معاوية بتوريث ابنه يزيد الخلافة من بعده، استحدث للنظم الإسلامية تقليداً جديداً، غير به سنة السلف، وتشبه بملوك الفرس والبيزنطيين، وحول الخلافة كما قال الجاحظ - إلى ملك كسروي وعصب قيصري⁽⁵⁸⁾، وأرسل معاوية ابنه يزيد في عهد مبكر إلى حرب الثغور⁽⁵⁹⁾ وكتب إلى عماله بتقريبه ومدحه⁽⁶⁰⁾ ليزيل عنه ما ألصقه به أعداء البيت الأموي من الخلاعة وشرب الخمر وإيواء المغنين⁽⁶¹⁾ ثم أخذ له البيعة بنفسه من وفود الأمصار، حتى ولو كانوا كارهين⁽⁶²⁾.

(52) الكامل ج 2 ص 127.

(53) المصدر السابق 132/3.

(54) انظر عائشة والسياسة للأستاذ سعيد الأفغاني، ص 242 الطبعة الثانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، سنة 1957 م.

(55) الكامل ج 3 ص 138. 180.

(56) المصدر السابق ج 3 ص 196.

(57) المصدر السابق ج 3 ص 178.

(58) رسالة في معاوية والأمويين ص 16 صححها ونشرها عزة العطار، القاهرة، سنة 1365 هـ.

(59) تاريخ اليعقوبي، ج 2 ص 271. تحقيق هوتسما، الطبعة الأوروبية في جزأين، 1893 م.

(60) الكامل ج 3 ص 250.

(61) الأغاني ج 16 ص 70 لأبي الفرج الأصفهاني - 20 جزءاً، طبعة بولاق، سنة 1285 هـ.

(62) انظر: تاريخ اليعقوبي ج 2. ص 256. والإمامة والسياسة ج 1 ص 263.

ثانياً: سقوط الخلافة الأموية:

بدأت الخلافة الأموية تضعف بعد موت معاوية - رضي الله عنه - وتولى يزيد الخلافة بعده، فقد كان الحسين بن علي أول الخارجين على يزيد، وقد تمسك بالخلافة بعد تحريض أهله إياه، وتأييدهم له، وسار بعدد قليل من أصحابه إلى الكوفة التي قتل فيها من قبل أبوه، وقاتل آل البيت قتال الأبطال، في سهل لا ماء فيه بالقرب من الفرات، سماه الحسين «كربلاء» إذ لم يكن فيه إلا الكرب والبلاء⁽⁶³⁾ وما زال أنصاره يتنافسون بالقتال بين يديه حتى أصبح أغلبهم ما بين قتيل وجريح⁽⁶⁴⁾ ثم نزل إليه رجل نكرة فركب صدره وحز رأسه الشريف⁽⁶⁵⁾ وكانت هذه هي «الفتنة الثانية»⁽⁶⁶⁾ التي حاقت بالمسلمين بعد الفتنة الكبرى - بمقتل عثمان - رضي الله عنه - فانفصمت عرى الوحدة، وكثرت الفرق، وتشعبت الآراء، واستحالت الخلافة الأموية «ملكاً عضوضاً» وإن خرج منها حكام أكفاء، أسهموا في بناء الحضارة الإسلامية، ووسعوا رقعة الدولة.

ومما ساهم في سقوط الدولة الأموية الصراع بين أفراد البيت الأموي، والدليل على هذا هو أن مروان كان له موقف من ولاية يزيد في حياة معاوية ولا نود أن نفصل هذا الموضوع الذي أشبعته المصادر دراسة وبحثاً⁽⁶⁷⁾.

ثالثاً: الخلافة في الدولة العباسية:

قامت الدولة الإسلامية العباسية على أكتاف الأعاجم، لأن العباسيين لم

(63) معجم البلدان ج 7 ص 229. لياقوت الحموي، تحقيق أمين الخانجي، 8 أجزاء القاهرة، سنة 1323 هـ.

(64) مقاتل الطالبين ص 55. لأبي الفرج الأصفهاني، النجف سنة 1353 هـ.

(65) انظر: فرق الشيعة ص 25. «للنوبختي» صححه محمد صادق، النجف سنة 1355 هـ 1936 م.

(66) انظر الكامل ج 3 ص 264.

(67) انظر: النزاع بين أفراد البيت الأموي ودوره في سقوط الخلافة الأموية، تأليف: رياض عيسى، دار حسان للطباعة والنشر، طبعة أولى، سنة 1406 هـ 1985 م وانظر خلافة بني أمية، ص 79 - 80 نبيه عاقل، والتاريخ السياسي للدولة العربية ج 2. الطبعة الثالثة، بيروت، سنة 1966 م ص 95.

يجدوا بدأ من إشراكهم في السلطة، ولم يكن عجباً أن تأثروا بهم، فقلبت على خلفائهم نزعة استبدادية أوشكت أن تذكر الناس بأكاسرة الفرس، وبالخلافة العباسية دخلت الأمة الإسلامية طوراً جديداً، حتى قال المؤرخون: إن دولة بني أمية عربية، ودولة بني العباس أعجمية⁽⁶⁸⁾ واستطاع الحكام العباسيون أن يفرضوا على الناس طاعتهم باسم الدين، ولا سيما حين كان الخليفة يرتدي بردة النبي ﷺ في المواسم والأعياد⁽⁶⁹⁾.

ولقد أصبحت الخلافة في العصر العباسي وراثية تماماً، ووجهت في هذه المسألة أقسى ضربة إلى تقاليد العرب حين تجاهل العباسيون مشكلة السن، فعهدوا بالخلافة إلى الذين لم يبلغوا سن الرشد: كما عهد الرشيد إلى ابنه الأمين وكان عمره خمس سنوات فقط، وربما كانت هذه الطريقة معروفة في العهد الأموي، إلا أن العباسيين توسعوا فيها وجروا بها على الخلافة كثيراً من الولايات⁽⁷⁰⁾.

رابعاً: النفوذ التركي 218 هـ - 334 هـ:

لعل أهم ما نلاحظه في هذه الفترة أن ظروفاً جديدة طرأت فغضت من قيمة الخلافة ومكانة الخليفة حتى بدأت سلطاته تتقلص رويداً رويداً، بعد أن تدخل الأتراك في شؤون الدولة حتى في اختيار الخلفاء وتعيينهم وعزل بعضهم أحياناً، ومن ذلك أن المعتز لما جلس على سرير الخلافة قال بعض الظرفاء: أنا أعرف مقدار خلافته، قالوا له، فكم يعيش وكم يملك؟ قال: ما أراد له الأتراك أن يعيش⁽⁷¹⁾.

(68) البيان والتبيين ج 2 ص 64 (للملاحظ) تحقيق عبد السلام هارون سنة 1948 م.

(69) النظم الإسلامية (لحسن إبراهيم) ص 40 وعلي إبراهيم حسن بالقاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط 2. سنة 1959 م.

(70) المدخل في تاريخ الحضارة العربية ص 19 (ناجي معروف) الطبعة الأولى ببغداد سنة 1379 هـ 1960 م.

(71) الفخري في الآداب السلطانية (لمحمد بن علي بن محمد بن طباطبا المعروف بابن الطلق) شركة طبع الكتب العربية بمصر سنة 1317 هـ.

خامساً: النفوذ البويهي 334 هـ - 447 هـ:

في هذه الفترة انحط مركز الخليفة انحطاطاً شديداً، وفقد حرمة ومكانته، فقد جاء معز الدولة البويهي على رأس جيش أعجمي، وفتح به بغداد وأنشأ في مركز الخلافة إمارة وراثية وسمى نفسه أمير الأمراء.

وأبقى البويهيون على الخلافة، ولكنهم انتزعوا من الخليفة كل سلطة تنفيذية. وهكذا لم يبق للخلفاء في هذا العصر إلا القليل من النفوذ الديني يمكنهم من تعيين القضاة والوعاظ وأئمة المساجد والقائمين بالشؤون الروحية المحضة، وبكلمة واحدة أضحي الخليفة أقرب إلى رجل الدين المعظم، بينما كانت السلطة السياسية من نصيب أمير الأمراء⁽⁷²⁾.

سادساً: النفوذ السلجوقي 447 هـ - 590 هـ:

اضطربت الأحوال في إقليم العراق مما جعل الخليفة القائم بطغربك مؤسس الدولة السلجوقية، الذي دخل بغداد سنة 447 هـ ففضى على البويهيين، وفي هذا العهد السلجوقي حاول الفاطميون أن يستولوا على العراق، واستطاع رجل منهم يقال له البساسيري أن يسير إلى بغداد وأن يخضعها لنفوذه، واستطاعوا أن ينتزعوا بلاد الشام أيضاً من الفاطميين، وانقطعت الدعوة إلى الفاطميين منذ أعلن أمير المرابطين يوسف بن تاشفين اعترافه للعباسيين بالخلافة.

وقد استعادت الخلافة في هذه الفترة شيئاً من عزتها وكرامتها، فعاد الناس يلقبون الخليفة «بأمر المؤمنين»⁽⁷³⁾.

ولقد ظلت السلطة بأيدي السلاجقة إلى وفاة السلطان مسعود السلجوقي سنة 574 هـ، ثم زالت هذه السلطة منذ تلك السنة عن العراق.

وتمكن الخليفة الناصر لدين الله العباسي من الإجهاز على آخر سلاطين

(72) المدخل في تاريخ الحضارة العربية ص 22. (ناجي معروف).

(73) المصدر السابق ص 23.

السلالة سنة 590 هـ وقال: إنه يريد أن يصلح نظم الخلافة، وربما تم له ما أراد في بعض مظاهر الإصلاح، وجاهر الناصر بتعظيم العروبة في ديار الإسلام، فأتاح بهذا للخلافة أن تبقى بنجوة عن نفوذ الأعاجم الطامعين، وظلت الخلافة العباسية مستقلة نحو 66 سنة حتى سقوط بغداد بأيدي المغول سنة 656 هـ⁽⁷⁴⁾.

سابعاً: عهد الفاطميين سنة 297 - 567 هـ:

قامت الخلافة الفاطمية في المغرب سنة 297 هـ وانتقلت إلى مصر في عهد المعز لدين الله سنة 362 هـ وإلى فاطمة بنت الرسول ﷺ ينتسب مؤسسو هذه الخلافة، الذين رغبوا منذ البداية في مزاحمة الخلافة العباسية على شؤون الحكم. أخذ الفاطميون بمبدأ الوراثية في الحكم كالعباسيين، وأوجبوا على الإمام أن يعين اسم ولي عهده قبل موته لثلاث تخلص الأرض من إمام.

وقد وضعوا كثيراً من النظم الإدارية والمالية، أحكموا بها أمور الخراج والحسبة والجوالي والأحباس، وبسطوا سلطانهم على البلاد الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى نهر الفرات شرقاً، ومن آسيا الصغرى، شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً⁽⁷⁵⁾.

ونشأت خلافة أخرى للفاطميين في شمالي إفريقية، وحرص بعض خلفائها على مظاهر الأبهة كما كان يحدث في بلاط قرطبة بالأندلس، ليظل الخليفة في نظر الناس حاكماً دنيوياً وإماماً روحياً⁽⁷⁶⁾.

سقوط الخلافة العباسية

هناك أسباب كثيرة أدت إلى سقوط خلافة العباسيين سوف أذكرها بإيجاز وهي ما يأتي:

(74) المصدر نفسه ص 24.

(75) انظر: النظم الإسلامية (لحسن إبراهيم) ص 79 - 85.

(76) انظر: المدخل في تاريخ الحضارة العربية ص 25.

أولاً: حملة المغول العسكرية، بقيادة هولاكو - وسقوط بغداد على أيدي المغول وأعدائهم -⁽⁷⁷⁾ وأصبحت مدينة بغداد، ومعها جميع أراضي الدولة العباسية بصورة رسمية جزءاً من الممتلكات المغولية، وذلك عندما مثل المستعصم بنفسه أمام هولاكو وأعلن استسلامه للمغول⁽⁷⁸⁾ وقد كانت نهاية الدولة العباسية في سنة ستمائة وستة وخمسين للهجرة في يوم الأحد الرابع من صفر⁽⁷⁹⁾.

ثانياً: دور العناصر المسيحية من خارج أراضي الدولة العباسية:

يبدو لنا من الخطأ الكبير القول بأن سقوط بغداد وما نتج عنه من دمار الدولة من مصائب، ومحن وما تعرضوا له من القتل والسلب خلال الغزو المغولي - كان سببه المغول بصورة رئيسية وأساسية - وإنما شاركت بعض العناصر المسيحية والإسلامية في القضاء على الخلافة في بغداد⁽⁸⁰⁾.

لقد بدأت البعثات التبشيرية، الأوروبية وغير الأوروبية، المسيحية نشاطاتها التبشيرية، بين الأوساط المغولية، منذ وقت مبكر جداً، وذلك لتشجيع أولئك الناس، وحثهم على اعتناق الديانة المسيحية، والعمل على إعلاء هذه الديانة السماوية وجعلها أكثر انتشاراً.

وكان الغرض من وراء هذه البعثات التبشيرية المسيحية، ونشاطاتها، يهدف إلى تحقيق أمرين، في غاية الأهمية:

(أ) نشر هذه الديانة، في هذه الأصقاع.

(ب) السعي الحثيث بجد ونشاط مضنيين وراء إيجاد نوع من التحالف

(77) انظر: رشيد الدين، جامع التواريخ ج 2 ص 699 (خلفاء جنكيز خان) ترجمه إلى اللغة الإنكليزية، فارسية، مترجم إلى الإنكليزية، الأستاذ الدكتور/ ج. أ. بويل نيويورك سنة 1971 م.
(78) انظر ذيل مرآة الزمان ج 1 ص 85. تحقيق دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد سنة 1374 هـ 1954 م.

(79) انظر: مجمل فصيح، ج 2 ص 325.

(80) انظر تاريخ المغول والعالم الإسلامي - سقوط الدولة العباسية، د. سعد بن محمد حذيفة الغامدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة 1401 هـ 1981 م.

الشرقي - الغربي، ثم القيام بعد ذلك بحملة صليبية أخيرة ضد المسلمين. والقضاء على دينهم بصورة نهائية⁽⁸¹⁾.

وكانت الدويلات المسيحية الصليبية في الشرق الأوسط وعلى رأسها دويلاتهم في أرمينيا الصغرى وفي أنطاكية وفي طرابلس ممن عرف أنهم ساهموا مساهمة فعالة في حملة المغول ضد الأقطار الإسلامية، فقد انضمت قواتهم العسكرية تحت خدمة المغول، فانضوا تحت لوائهم على أمل مكاسب إقليمية من أراضي المسلمين، وخاصة استعادة بيت المقدس، ومن ثم القضاء المبرم على الإسلام كدين رئيسي في المنطقة.

ثالثاً: دور المسيحيين من داخل أراضي الخلافة العباسية:

لم نجد في المصادر التي تسنى لنا الرجوع إليها - أية إشارة تدل على أن الجالية المسيحية هناك قد ساهمت مع المغول، أو قدمت لهم تسهيلات، أو مساعدات ضد الدولة العباسية، أثناء اقتحام المغول لأراضي العراق عامة، وبغداد خاصة. على الرغم من أن بعض التقارير التي بين أيدينا تشير بوضوح على أن منازل أتباع الدين المسيحي كان يقوم على حراستها جنود مغوليون، أرسلوا خصيصاً للقيام بهذا الفرض، أثناء اجتياح بغداد، وقد كان موقف المسيحيين في بغداد موقفاً إيجابياً بوجه عام، وذلك بالعكس تماماً من موقف المسيحيين الصليبيين في الشام هذا على الرغم من أن فئات قليلة تصرفت تصرفاً صلفاً، جرحت شعور المسلمين في هذه المحنة الكبرى⁽⁸²⁾.

رابعاً: دور العناصر المسلمة في إسقاط بغداد وتدمير الخلافة العباسية:

كان هناك عناصر، تتكون من المسلمين، وقوى شاركت فعلاً في حملة

(81) آرنولد، سيرثومان، الخلافة، لندن، سنة 1970 م ص: 125. وكوك، رتشاد بغداد، مدينة السلام،

لندن، سنة 1927 م ص 130 - 139 وساووندرز، تاريخ الفتوحات المغولية ص 79.

(82) انظر: الحوادث الجامعة ص 218. 224. 329. وص: من 333 - 334. ابن القوطي.

المغول التي قادها هولاكو ضد أراضي العراق، ممن شاركت في كارثة بغداد، والإطاحة بحكومتها العباسية، وتنقسم هذه العناصر إلى فئتين رئيسيتين، تتكون الأولى من أولئك الذين اتهمتهم بعض المصادر بالقيام بالتآمر الغادر مع القوات المغولية الغازية، ضد حكومة بغداد العباسية⁽⁸³⁾.

أما المجموعة الثانية (من العناصر والقوى المسلمة) فيتكون أعضاؤها ممن ثبت أنهم اشتركوا فعلاً مع المغول، مشاركة فعالة، في غزواتهم تلك ضد الأراضي الإسلامية، وممن تلطخت أيديهم بدماء إخوانهم المسلمين⁽⁸⁴⁾ كما أن هناك بعض الحكام المسلمين شارك المغول في حملتهم الغازية تلك - بقيادة هولاكو⁽⁸⁵⁾.

الخلافة الإسلامية في تركيا

تأسست الدولة العثمانية على يد الأتراك العثمانيين بعد تفكك، الإمبراطورية السجلوقية، ومؤسس الدولة العثمانية هو عثمان الأول الملقب بـ «الغازي» وتعاقب على عرش الدولة العثمانية عدد كبير من السلاطين بدءاً من السلطان عثمان الأول (1299 - 1326 م) تاريخ استقلاله 1299 م، ثم جاء بعده السلطان أورخان (1326 - 1360 م) واستمر توليهم للحكم الواحد تلو الآخر إلى أن تولى السلطان العثماني الرابع والثلاثون (عبد الحميد ابن السلطان عبد المجيد) وقد ارتقى العرش بعد أن قطع الأطباء الأمل في شفاء السلطان مراد.

وفي استانبول التي كانت تعج بجواسيس الدول الأجنبية، نشطت السفارات في جمع المعلومات عن السلطان الجديد المرتقب، ولقد أتى السلطان عبد الحميد إلى الحكم في فترة مضطربة جداً من تاريخ الدولة العثمانية،

(83) انظر: ذيل مرآة الزمان ج 1 ص 90. اليونيني، والبداية والنهاية، ج 13. ص 202. الإمام ابن كثير، طبعة بيروت، سنة 1967 م.

(84) تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص 198. أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل (ويعرف هذا الكتاب بالذيل على الروضتين) القاهرة، 1366 هـ / 1946 م وانظر: دول الإسلام، ج 2 ص 122. وانظر: فوات الوفيات ج 2. ص 313. ابن شاعر الكتي.

(85) انظر: جامع التواريخ، رشيد الدين، ج 2 ص 688.

فالأوضاع كانت تغلي في البلقان والثورات قائمة في هرسك وفي بوسنه، وفي الجبل الأسود، وفي بلغاريا، والدول الأوروبية وروسيا تؤجج هذه الثورات وغيرها، وتمدها بالسلاح وبالمتطوعين، وتضغط بذلك، على الدولة العثمانية التي بقيت وحيدة أمام هذه الدول جميعاً⁽⁸⁶⁾.

سياسة السلطان تجاه الحركة الصهيونية:

طرد اليهود من كثير من البلدان الأوروبية التي سكنوا فيها - دون أن يتعاشوا ويتآلفوا وينسجموا مع شعوبها، بل تقوقعوا على أنفسهم وعاشوا في أحياء منعزلة مقفلة عليهم أطلق عليها اسم «الجبوتو Ghetto system» فكرهتهم هذه الشعوب ونبذتهم وأساءت معاملتهم، وحرمت عليهم في معظم الأحيان تولي المناصب العامة⁽⁸⁷⁾.

ولما كانت فلسطين تقع آنذاك ضمن أملاك الدولة العثمانية، فقد اتجهت أنظار ومحاولات زعماء اليهود إلى السلطان عبد الحميد لعله يوافق على مقترح من مقترحاتهم، العديدة لتشكيل نواة صغيرة في فلسطين أو فيما يجاورها كخطوة أولى تتبعها خطوات أخرى للوصول إلى الهدف النهائي.

وقد بذل اليهود كثيراً من المساعي لدى السلطان - تعرض عليه جهود اليهود في تعمير تركيا، وتجديد شبابها مقابل السماح لهم بالاستيطان في أراضٍ في شرق الأردن وسوريا الجنوبية، فرفض الطلب من قبل السلطان الذي كان يحدس المرامي الحقيقية لليهود قائلاً: «إن اليهود يستطيعون العيش بسلام في أية جهة من المملكة إلا في فلسطين، لأن الدولة العثمانية ترحب بالمضطهدين، ولكنها ترفض مساعدة اليهود في إقامة مملكة لهم في فلسطين أساسها الدين»⁽⁸⁸⁾.

(86) انظر الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، للدكتور محمد كامل الدسوقي ص 214.

(87) السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده، بقلم أورخان محمد علي، دار الوثائق بالكويت، الطبعة الأولى، سنة 1407 هـ 1986 م.

(88) انظر إلى: «موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية» ص 58.

سقوط الخلافة الإسلامية كان مخططاً من قبل أعداء الإسلام وبخاصة اليهود:

لقيام دولة إسرائيل في فلسطين كان لا بد من سقوط الخلافة الإسلامية، وهذا بعينه ما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون، حينما تنبأ به نيلوس بعد اطلاعه على هذه البروتوكولات وذلك منذ سنة 1319 هـ (1901 ك)⁽⁸⁹⁾ وذلك يؤكد طلب قرضو زعيم اليهود في سالونيك إلى السلطان عبد الحميد إعطاء فلسطين لهم ليتخذوها وطناً قومياً، فلما رفض الخليفة توعدّه الزعيم اليهودي⁽⁹⁰⁾ وكان من بين من سلمه قرار العزل بعد ذلك اثنان من زعماء اليهود⁽⁹¹⁾.

وللقضاء على الخلافة الإسلامية التي أظلت بلاد الإسلام منذ عهد النبي ﷺ وقبل أن يقضى على السلطان المجاهد عبد الحميد - كما أوصى بذلك أحد مؤتمرات التبشير كان هناك تمهيد يتلخص في الآتي :-

أولاً: فصل الدين عن الدولة:

إن فكرة فصل الدين عن الدولة كانت من عمل اليهود، كما أشار إلى ذلك وليام غاي كار الأمريكي⁽⁹²⁾ وهذه الفكرة كانت غريبة عن الشرق الإسلامي ومن ثم كانت الأيدي الأجنبية وراءها سواء كانت أيدي الصليبية المتعصبة أو اليهودية الحاقدة، لأن مثل هذه الفكرة لا توجد في الفقه الإسلامي، والفكر الإسلامي لم يعرف مثل هذه الفكرة ولم يتصورها بل يعرف الفكر الإسلامي عكس ذلك تماماً لأن القرآن الكريم يحرم ذلك ويعتبر ذلك كفراً، وفتنة، وجاهلية. ويعرف الفكر الإسلامي أن وظيفة القرآن الأولى، هي أن يحكم، لا أن يوضع على الأرفف والمناضد، أو تحشى به الجيوب، قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾⁽⁹³⁾ ويقول تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ

(89) انظر: الخطر اليهودي، بروتوكولات - حكماء صهيون: ترجمة محمد خليفة التونسي.

(90) انظر المصدر السابق.

(91) انظر المشروعية الإسلامية العليا، ص 231. د. علي جريشة.

(92) انظر: أحجار على رقعة الشطرنج، وليام غاي كار، ترجمة سعيد الجزائري.

(93) سورة الأعراف، آية: 3.

الله حكماً لقوم يوقنون ﴿٩٤﴾. وقال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من
الظلمات إلى النور بإذن ربهم﴾ (٩٥) وقال جل شأنه: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله
فأولئك هم الكافرون﴾ (٩٦) و: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم
الفاسقون﴾ (٩٧) ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ (٩٨).

فالإسلام دين يحكم كل شيء، قال تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا
لكل شيء﴾ (٩٩) والإسلام كما ينظم شؤون الفرد والأسرة ينظم أيضاً شؤون الدولة
وشؤون المجتمع الدولي وذلك نابع من طبيعة الإسلام العالمية الذي بعث الله به
رسوله محمداً ﷺ رحمة للعالمين، كما قال جل شأنه: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة
للعالمين﴾ (١٠٠)، ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ (١٠١) ذلك فقه
الإسلام وفكره.. الدولة جزء من الدين قسم له لا قسم (١٠٢).

وإذا عرفت التفرقة بين الدين والدولة في الغرب نتيجة لاضطهاد الكنيسة
للعلم والعلماء، وسخريتها بعقائد الناس وعقولهم، فإن الشرق الإسلامي لم يعرف
اضطهاد العلم والعلماء، بل حفظ لهم الإسلام وحفظت لهم أمتهم أكرم مكانة،
وأعز منزلة. ومن ثم فلم يكن هناك محل.. لا من الناحية الفكرية، ولا من الناحية
التاريخية لبث فكرة فصل الدين عن الدولة.

ونشأت هذه الفكرة حينما اعتنق حزب الاتحاد والترقي في تركيا الفكرة
وعمل على ترويجها، ثم عمل عن طريق ضباطه على عزل السلطان عبد الحميد،
ذلك الخليفة الذي رفض أن يعطي فلسطين وطناً لليهود وبصق في وجه زعيمهم

(٩٤) سورة المائدة، آية: ٥٠.

(٩٥) سورة إبراهيم، آية: ١.

(٩٦) سورة المائدة، آية: ٤٥.

(٩٧) سورة المائدة، آية: ٤٧.

(٩٨) سورة المائدة، آية: ٤٧.

(٩٩) سورة النحل، آية: ٨٩.

(١٠٠) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(١٠١) سورة سبأ، آية: ٢٨.

(١٠٢) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، ص ٣٨ - ٣٩.

فرصو. وصارت الحكومة المدنية في أنقرة، هي التي تحكم، والخليفة في الأستانة بغير سلطان تطبيقاً لفصل الدين عن الدولة⁽¹⁰³⁾.

ثانياً: نشر القومية في مواجهة الخلافة:

كانت فكرة بث القومية هي المعمول الثاني من معاول تحطيم الخلافة الإسلامية بعد بث فكرة فصل الدين عن الدولة، ونتيجة لهذه الفكرة فقد بدأت تظهر القوميات التالية:

1- إثارة القومية الطورانية داخل دولة الخلافة (تركيا).

2- إثارة القومية العربية داخل الولايات التابعة للخلافة.

والقومية التركية تعهدا بالرعاية حزب الاتحاد والترقي وحزب تركيا الفتاة. بينما انزلق إلى القومية العربية الشريف حسين ظناً منه أنها الوجه الآخر للإسلام، وقد بدأت الدعوة إلى القومية العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتألّفت في بيروت جمعية سرية لهذا الغرض في سنة 1292 هـ 1875 م⁽¹⁰⁴⁾ واعتقاداً من الشريف في حسن نوايا الجاسوس (لورانس) ومن ورائه ماكماهون حتى انتهى الأمر إلى أن تحارب جيوش القومية العربية جيوش الخلافة الإسلامية تعضدها الجيوش الإنكليزية التي سارت تحت راية فيصل ابن الشريف حسين لتخرج سوريا لاستقبالها استقبال الفاتحين⁽¹⁰⁵⁾.

ثالثاً: إسقاط الخلافة الإسلامية:

لقد صنعت الصهيونية العالمية مصطفى كمال أتاتورك كما صنعت حزب الاتحاد والترقي ليكون هؤلاء الجسر الذي تعبر عليه للقضاء على الخلافة الإسلامية

(103) المصدر السابق ص 39.

(104) راجع تفصيلاً لذلك بحثاً طيباً عن عوامل ضعف المسلمين للأستاذ سميح عاطف الزين دار الكتاب اللبناني.

(105) انظر: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ص 40.

ويتضح ذلك من توقع بيلوس منذ سنة 1319 هـ (1901 م) كما أشرت إلى ذلك فيما مضى، وكذلك تهديد الزعيم اليهودي قرصو للسلطان عبد الحميد بعد أن رفض إعطاء فلسطين لليهود، وقبل ذلك كله نشروا فكرة فصل الدين عن الدولة ومصدرها المباشر الصليبية، ومصدرها غير المباشر الصهيونية، ومن قبله نشر القومية العربية على يد لورانس الجاسوس الإنكليزي.

وقد وضعوا شروطاً أربعة لاستقلال تركيا وتسليمها للكماليين، وهي :-

- 1 - قطع كل صلة بالإسلام.
- 2 - إلغاء الخلافة.
- 3 - إخراج أنصار الخلافة والإسلام من البلاد.
- 4 - اتخاذ دستور علماني بدلاً من الدستور القديم⁽¹⁰⁶⁾.

وفي مارس عام 1924 م أعلن كمال «أتاتورك» رئيس تركيا إلغاء منصب الخلافة من بلاده فكان لهذا دوي بالغ في جميع أنحاء العالم الإسلامي⁽¹⁰⁷⁾ وأختم حديثي عن سقوط الخلافة الإسلامية في تركيا بالسؤال التالي:

هل صارت تركيا - بعد إلغاء الخلافة - في مصاف الدول العظمى؟

والجواب على ذلك: أن تركيا وبعد مرور أكثر من نصف قرن من إلغاء الخلافة فيها لا توضع في الدرجة الثانية، ولا الثالثة، ولا الرابعة، بين دول العالم.. وكانت قبلها في الدرجة الأولى، أهذا هو الترقى.. يا حزب الترقى!!!

(106) انظر: العالم الإسلامي - الاستعمار السياسي والثقافي والاجتماعي ص 46، 47. أنور الجندي.
(107) انظر: الإسلام والخلافة في العصر الحديث، نقد كتاب الإسلام، وأصول الحكم - الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس، مكتبة دار التراث، شارع الجمهورية - القاهرة.

العوامل الذاتية التي رسخت ظاهرة الانفصال والفرقة بين شعوب العالم الإسلامي

بات معلوماً أن العالم الإسلامي - بعد الإجهاز على الخلافة الإسلامية، وما تبعها وما سبقها من تقطيع لأوصال العالم الإسلامي، وما صاحب ذلك من حملات تبشير واستشراق، إن لم تنجح في تنصير المسلمين بما يكافئ الجهود والأموال المبذولة، فقد أفلحت في بث الشكوك والوهن في عقائد المسلمين وأفكارهم، ورسخت ظاهرة الانفصال والفرقة بين المسلمين.

أهم أسباب الانفصال والفرقة بين المسلمين هي ما يأتي:

1 - بعد المسلمين عن كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، والبحث عن السعادة والاستقرار في غيرهما.

2 - الجهل بالإسلام وعدم الإحاطة بعقائده وأحكامه وتشريعاته وأخلاقه وآدابه.

3 - ضعف التربية الإسلامية الصحيحة، سواء كان ذلك داخل الأسرة أو في مدارس التعليم على مختلف المراحل.

4 - نشر القوميات المختلفة بين الأمة الإسلامية والبعد عن الوحدة الإسلامية التي تنطلق من المساواة بين المسلمين وقد أعلن القرآن الكريم هذا المبدأ المعجيد، ونادت به السنة النبوية المطهرة، وطبقه المسلمون في مجتمعهم فلم يكن هناك سادة وعبيد، ولا فقراء وأغنياء، ولا ملوك وسوقة، بل كانوا جميعهم متساوين أمام مبادئ الإسلام ونظمه، كما كانوا إخوة متحابين⁽¹⁰⁸⁾.

5 - انتشار البغضاء بين المسلمين، وهي من الأمور الخطيرة التي زادت الفرقة والشتات وقضت على المحبة التي غرسها الإسلام في نفوس المسلمين منذ أن اعتنقوه، وكانت تشد الناس بعضهم إلى بعض.

(108) قواعد البناء في المجتمع الإسلامي، ص 116. د. محمد السيد الوكيل.

6- كما أن هناك كثيراً من الآفات الاجتماعية التي ساهمت في توسيع الفِرقة والشتات بين المسلمين، منها ظن السوء الذي نهى عنه الإسلام في قول الرسول ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً»⁽¹⁰⁹⁾.

7- ومن الآفات التي ساعدت في توسيع الشقة بين المسلمين وأثرت في تماسك الوحدة الإسلامية، آفة الحسد، وهي من أكثر الآفات انتشاراً بين المسلمين والسبب في ذلك ضعف الإيمان في النفوس، وعدم التمسك بالقرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة⁽¹¹⁰⁾.

8- ومن الأسباب التي عمقت الفِرقة بين المسلمين، وحذر الإسلام من فعلها: الغيبة والنميمة وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن الغيبة وصورها بأبشع صورة، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُمُ بَعْضًا، يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾⁽¹¹¹⁾. وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» متفق عليه⁽¹¹²⁾.

وهناك أسباب خارجية زادت الفِرقة بين الشعوب الإسلامية فرضها الصليبيون والصهيونيون للانقضاض على المسلمين، ولقد اتخذت من الوسائل ما يضمن بقاء الجسد الإسلامي ممزقاً هامداً مثخناً بالجراح، وكان لهم في ذلك أكثر من سبيل أهمها ما يأتي:

أولاً: التغيير السياسي الذي صاحب الغزو الصليبي للشرق الإسلامي، ولقد أخذ الصليبيون في التغيير السياسي اللازم، لبقاء سيطرتهم أولاً، ثم لتحقيق الهدف من هذه السيطرة ثانياً، وتمثل ذلك في:

(109) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، ج 8 ص 23.

(110) انظر: كتابنا عناصر الترابط في المجتمع الإسلامي، دار الثقافة، الدوحة، قطر طبعة أولى، سنة 1410 هـ 1989 م.

(111) سورة الحجرات، آية: 12.

(112) انظر صحيح البخاري، ج 11 ص 264. وصحيح مسلم، برقم 47.

احتلال فرنسا للجزائر سنة 1246 هـ - 1830 م وتونس سنة 1299 هـ - 1881 م ومراكش سنة 1330 هـ - 1912 م وللشام سنة 1338 هـ - 1920 م وكان احتلال بريطانيا سنة 1274 هـ - 1857 م للهند إيذاناً بزوال إحدى الدول الإسلامية الكبرى، التي قامت في مستهل القرن السادس عشر، واحتلالها لمصر سنة 1300 هـ - 1882 م والعراق سنة 1332 هـ - 1914 م وفلسطين 1337 هـ - 1918 م ولم يكن ذلك التوزيع وليد الصدفة، فلقد كشف الاتفاق المنعقد بين بريطانيا وفرنسا سنة 1322 هـ - 1904 م عن جانب من سياسة تقطيع أوصال العالم الإسلامي وصحب ذلك التقسيم إثارة القوميات المختلفة كالقومية الطورانية في تركيا.. والقومية العربية في البلاد العربية.. حتى اقتتل المسلمون تحت قيادة النصارى باسم القومية والتحرير⁽¹¹³⁾.

ثانياً: التغيير الاجتماعي، لقد سعى الغرب الصليبي إلى إحداث كثير من التغيير الاجتماعي بعد أن سيطر على العالم الإسلامي سياسياً والهدف من ذلك هو إخراج المسلمين من دينهم وإدخالهم إلى دين آخر، كما وضح ذلك من كلام المبشرين، ثم كانت عملية تنصير المسلمين صعبة إن لم تكن مستحيلة، فاقصرت العملية على إخراج المسلمين من دينهم، ونجحت هذه الخطة والعمل بها جار الآن في كثير من بلاد المسلمين، ثم كانت الخطة الثالثة.. التي لا تذهب إلى عملية الإخراج من الدين تماماً ولكنها تكتفي بالإبعاد عن الدين من غير استعمال لفظ الإبعاد حتى لا يستثير حفيظة المسلمين أو تنبيههم إلى حقيقة الهدف، وقد كانت الإشارة إلى هذا الهدف تحت اصطلاحات أكثر تهديداً مثل التغريب أو التغيير الاجتماعي⁽¹¹⁴⁾.

والتغيير الاجتماعي، قد سمي التغريب، وقد يسمونه المدنية، أو التطور أو التقدم، وما يزال العمل يسير بجذ ونشاط في إدخال المدنية الغربية إلى جميع بلاد

(113) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، ص 45.

(114) انظر: كتاب الحضارة الغربية، للدكتور محمد محمد حسين، وكتاب: العالم العربي اليوم للكاتب الأمريكي مورو بيرجر.

المسلمين ويأخذ التغيير الاجتماعي طريقه بتقديم ونجاح حسب خطة مرسومة، وضعت خطوطها بعد دراسة الموقف تقوم على التطور والتدرج⁽¹¹⁵⁾.

ومما ينبغي أن نشير إليه هنا وهو أن التغريب، أو التغيير الاجتماعي الذي كان يجري على أيدي المحتلين والمستعمرين، صار يجري اليوم - في أكثر الأحوال على أيدي العناصر الوطنية - التي هي في أكثر الأحيان «عسكرية»⁽¹¹⁶⁾ هذا هو الهدف من التغيير الاجتماعي، الذي يعني في الحقيقة إبعاد الأمة عن دينها في شتى نواحي الدين التي تشمل نواحي الدنيا ولقد كان لهذا التغيير أكبر الأثر في تمزيق وحدة المسلمين.

وشعارات الغرب ووسائله لإحداث التغيير الاجتماعي في بلاد المسلمين كانت كما يلي:

علمانية:

في التعليم، وفي الإعلام، وفي القانون، وقوميات تمزق الأمة الواحدة، وتمزق الدولة الواحدة، وتحرير المرأة، ليسقط المجتمع في حمأة الرذيلة ويقضي بنفسه على نفسه.

هذه هي أهم أسباب الانفصال والفرقة بين المسلمين، وقد تكون هناك أسباب لم أذكرها خشية الإطالة وإذا عولجت هذه الأمور فإن الأمة تستطيع أن تتغلب على الأخرى في إطار النظر إلى المسلمين على أنهم أمة واحدة مستهدفة من أعداء الإسلام، وأن عزتها في وحدتها، وأن سيادتها وكرامتها في تمسكها بكتاب ربها، وسنة نبيها ﷺ.

(115) انظر: مورو بيرجر في العالم العربي اليوم، صفحات 306. 319. 320. 323. 324. 326. 331. 340. 348.

(116) انظر: كتاب العالم العربي اليوم، للكاتب الأمريكي مورو بيرجر، ص 310. 313. 314.

145- الوحدة الإسلامية بين النظرية والتطبيق

الأمة الإسلامية لها القدرة على إقامة وحدة إسلامية، تؤلف بين أبنائها

على الرغم من الحرب الشديدة التي يمارسها أعداء الإسلام ضد المسلمين ووحدهم فإن هذه الأمة لا تزال قادرة على جمع صفوفها، وتوحيد كلمة أبنائها لأنها والله الحمد ما زالت تملك النور الذي يضيء لها طريقها، وبعد ذلك فلقد خص الله هذه الأمة، فجعلها قلب العالم كله من كل ناحية:

من ناحية المكان: هي مركز الدائرة بالنسبة للعالم كله، وهو ما يجعل لها مركزاً استراتيجياً خطيراً لا يتوفر لأية أمة أخرى⁽¹¹⁷⁾.

ومن ناحية الخامة البشرية: فإن الدراسة المنصفة للطبيعة البشرية وخصائصها تجعل لهذه الأمة من الخصائص البشرية ما ليس لأمة أخرى وبذلك تحقق الوسطية لهذه الأمة على اختلاف وجوهها، وصدق الله العظيم إذ يقول في محكم كتابه: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾⁽¹¹⁸⁾.

إن الإسلام قد أقام الوحدة بين المسلمين على قواعد متينة وأسس راسخة تقاوم كل اعتداء وتتحدى كل العقبات مهما كانت قوية وعنيفة.

وهذا هو السر في بقاء الإسلام قوياً بذاته وإن تخرى عنه كثير من أبنائه، فقد مضى عليه أربعة عشر قرناً، ولا يزال جديداً يحمل للناس كل ما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم.

وإننا لنلاحظ أنه كلما ابتعد المسلمون عن دينهم سخر الله له من يحمل رايته ويدفع عنه المعتدين، ويحبط كيد الكائدين، تحقيقاً لقول الله جل شأنه: ﴿وإن

(117) سجل الدكتور/ حسين كمال الدين الأستاذ بكلية الهندسة، بجامعة الملك سعود في بحث علمي هام أن الكعبة المشرفة هي المركز لدائرة العالم كله، بحيث لو أردنا رسم دائرة للعالم لكان لازماً وضع السن على الكعبة المشرفة ليتمكن رسم هذه الدائرة، (البحث قدم لمؤتمر الفقه الإسلامي المنعقد بالرياض في ذي القعدة 1396 هـ).

(118) سورة البقرة، آية: 143.

تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم»⁽¹¹⁹⁾.

ولكن أمام المسلمين مراحل طويلة حتى يستطيعوا أن يقيموا جامعة إسلامية ضخمة تلم شمل المسلمين وتداوي جراحاتهم، وتحرر مستعبيهم وترد العدوان عنهم.

يقول الشيخ الغزالي⁽¹²⁰⁾: ولا أدري لماذا يكون الوجود الصيني واقعاً عادياً فيصبح الثمانمائة مليون إنسان دولة موحدة، ويكون الوجود الإسلامي خيالاً مستبعداً؟ ولو كان اتحاد ولايات أو تحالف دول متآخية.

إن شؤون المسلمين لا تعالج للأسف بالعقل العادي، فالتأثر بالاستعمار والتبعية الدليلة للغزو الثقافي هما أساس التجهم الغريب لكل كلام عن الإسلام، وأمة الكبرى ووحدته المنشودة، إن الغارة الاستعمارية التي شتتها أوروبا على الإسلام وأتباعه منذ قرنين تقريباً استهدفت أمرين رهيين:

الأول: رفض أي تلاق على الإسلام بين الشعوب المتسببة له، وتمزيق الولاء الموروث نحو الجامعة الإسلامية وإحياء نزعات قومية حقيقية ومفتعلة، تجعل أبناء الأسرة الواحدة متناكرين لا يلوي أحدهم على الآخر ولا يخدم أسرة الدين المشترك، وبذلك أصبح المسلمون أوزاعاً بين (60 أو 70 جنسية) في المجال الدولي.

الثاني: تمويت الإيمان في ضمائر الأفراد بحيث ينفصل السلوك عن العقيدة فينحرف هذا وتنكمش تلك، ويصبح المجتمع مسرحاً للمبازل المستقرة والأهواء المطاعة والتيارات الطائشة، ثم يتحول ما بقي من دين إلى أشكال فارغة وبدع حقيرة لا تغني عن أصحابها شيئاً.

وبكلا الأمرين نجح الاستعمار الحاقد في بلوغ أهدافه منا وكان وصوله إلى إقامة دولة إسرائيل سهلاً، بعد التمهيد الذي كان يتمثل في إبعاد الولاء للإسلام في

(119) سورة محمد، آية: 38.

(120) انظر: قذائف الحق، محمد الغزالي، ص 236. فما بعدها، طبعة خامسة، منشورات ذات

السلاسل، سنة 1984 م.

المجال العام، وتوهين الرباط بالعقيدة في مجال العبادة والخلق، وأنواع المعاملات الأخرى. اهـ.

يحدثنا التاريخ عن أن الإسلام قد أقام للمسلمين في أيامه الأولى معهم مجدداً باذخاً وعزاً سائداً، وجعل إلى أيديهم قيادة ركب الحياة، والاستشفاء للإنسانية مما تراحم عليها من علل، وما تفسى فيها من آفات، اغتالت معاني الإنسانية فيها، فعدا بعضهم على بعض، كما تعدو جوارح الطير على بغائها، وإذا الإنسانية في ظل الإسلام تعود إلى رشدتها، وتسترد وجودها، وتلبس من المعاني الكريمة، ما هو جدير بالإنسان الذي أقامه الله تعالى خليفة في الأرض، يعمرها ويكشف المخبوء من أسرارها، لتكون مسخرة له، فيما يمكن له من سلطانه، ويحقق له معنى الخلافة المنوطة⁽¹²¹⁾.

ونجد اليوم العالم الأوروبي قطع شوطاً كبيراً في التقدم العلمي والتقني، وذلك في ظل إدارة عصرية منضبطة وتنظيم دقيق لجمع المعلومات وتوثيقها فيما يعرف اليوم باسم ثورة المعلومات.

وفي غمرة هذا التقدم العلمي والتقني المذهل تخلف العالم الإسلامي تخلفاً شديداً بعد أن حمل لواء المعرفة العلمية والفكرية والصناعية لعشرة قرون كاملة (من القرن السادس الميلادي إلى مشارف عصر النهضة في القرن السادس عشر الميلادي).

فقد أسقطت الخلافة الإسلامية في سنة 1924 م بعد احتلال مساحات كبيرة من أرض المسلمين، كما تم تمزيق هذا الجسد الواحد إلى أكثر من خمسين دولة متباينة المساحة وتعداد السكان، بالإضافة إلى أقليات منتشرة في كل دولة من الدول غير الإسلامية تفوق أعدادها مئات الملايين في بعض هذه الدول.

كما فقد العالم الإسلامي دولة ألبانيا وغالبيتها الساحقة من المسلمين، وفقد المسلمون أجزاء كثيرة عزيزة على نفوسهم مثل فلسطين، وولايتي جامو وكشمير

(121) انظر: كتاب مسلمون وكفى - ص 37 - عبد الكريم الخطيب، دار الشروق 407. 1403 هـ - 1983 م.

والجمهوريات الإسلامية التي ضمها الاتحاد السوفياتي، والولايات الإسلامية في كل من الصين والهند والفيلبين.

وقد أدى هذا التفتيت المتعمد إلى تشتت المقومات المادية والروحية والطاقات البشرية للمسلمين، في وقت أخذ العالم في الاتجاه إلى التوحد في تكتلات اقتصادية وسياسية وعسكرية كبرى، ولم تعد فيه إمكانية لوجود مستقل لأية تجمعات بشرية يقل تعدادها عن مائة إلى مائة وخمسين مليون نسمة وقد أدى تفتيت العالم الإسلامي إلى إفقاره فقراً شديداً على الرغم من ثرواته البشرية والطبيعية الهائلة، فالغالبية العظمى من سكان الدول الإسلامية اليوم باستثناء الدول النفطية، تعيش تحت الحد الأدنى للكفاف اللازم لصون كرامة الإنسان⁽¹²²⁾.

إن الوحدة الإسلامية بين شعوب العالم الإسلامي يمكنها أن تتحقق لأنها جربت في هذه الأمة من قبل، فأعطت نتائج باهرة، وحقت نجاحاً منقطع النظير.

وسعدت تحت سلطانها بالطمأنينة والعدل والاستقرار، وأطعمها الله بهذه الوحدة من جوع وآمنها من خوف، وأعزها بعد ذل، وعلمها بعد جهل، وهداها بعد ضلال واجتمعت عليه بعد فرقة، وتأخت في ظله بعد عداوة وشحناء، ومن أنكر هذا فقد كذب التاريخ ونفى الواقع، وجحد نعمة الله، وتكر لآيات الله، في كتابه على المؤمنين فقال: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾⁽¹²³⁾ وقال سبحانه: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾⁽¹²⁴⁾.

تلك هي طبيعة هذه الأمة، وذلك هو تأثير الإسلام في أبنائها: العرب

(122) قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي، د. زغلول راغب النجار، طبعة أولى، كتاب الأمة، نشر رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر.

(123) سورة آل عمران، آية: 164.

(124) سورة آل عمران، آية: 103.

وغيرهم من «العروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشداً لها»⁽¹²⁵⁾

يقول الأستاذ (كليرنج) في كتابه عن (الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته):

«إن الدين مرآة تنطبع عليها القيم الروحية والثقافية للشعوب بأجلى صورها وهو للجماعة كالحدقة من العين، تترسم عليها صور الحقائق التي توليها الاهتمام).

أما الأستاذ (أليسون Alison) فيؤكد استناداً إلى وقائع التاريخ ذاته بأن الاستقرار لدى الآسيويين - على الأخص - في حاجة دائماً إلى الاستناد إلى الدين⁽¹²⁶⁾.

وهذا موافق لما ذهب إليه «ابن خلدون» في شأن العرب والترك وغيرهم من شعوب الشرق من حيث قوة تأثير الدين فيهم، حيث يصبح الوازع لهم من أنفسهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة الوازع عن التحاسد والتنافس⁽¹²⁷⁾.

فمن أراد أن يصنع بهذه الأمة العجائب، ويقتحم بها المخاطر، ويخوض بها لجج المعارك، ويعيد بها أيام خالد وصلاح الدين، فليخاطبها باسم الله، وليقدها بزمam الإيمان، وليجمعها تحت راية القرآن وكلمة التوحيد، وقيادة معلمها الأول محمد عليه الصلاة والسلام، وليربطها بأيام الإسلام، وتراث الإسلام، وأبطال الإسلام.

بهذا تكشف الأمة عن خصائصها وأصالة معدنها، ويتجلى ما تنطوي عليه أعماقها من إيمان غطاء طلاء الحضارة الزائفة، وران عليها الصدأ بفعل المذاهب الدخيلة والأنظمة العميلة، التي أضلتها عن طريقها وتركبتها في حيرة وفراغ⁽¹²⁸⁾.

إن مما يبعث على الأمل في وحدة هذه الأمة هو أنها أمة مؤمنة بفطرتها

(125) من كتاب «حضارة العرب» لغوستاف لوبون - تعريب عادل زعير ص 417.

(126) انظر: الحل الإسلامي فريضة وضرورة، ص 135 - د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، بالقاهرة، الطبعة الثالثة، 1397 هـ - إبريل 1977 م.

(127) انظر: مقدمة ابن خلدون - الكتاب الأول - الفصل: 21 - 27.

(128) المصدر السابق ص 136.

وبتجاربها وبتاريخها: والإيمان هو أول ملامحها، وأبرز المعالم في حضارتها، وهو صانع أمجادها وصاحب الفضل الأول في تاريخها، وقائدها في معاركها الكبرى إلى النصر.

فبالإسلام فتحت البلاد وسادت العباد، وحطمت ملك كسرى، وقصت أجنحة قيصر وبه شرقت وغربت فأخرجت الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الخالق، ومن ضيق العيش إلى سعة الحياة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. ومفتاح شخصية هذه الأمة وطريق وحدتها هو الإيمان، به تصنع المعجزات وتتخطى المستحيلات، وتستعين بالعقبات، والله الهادي إلى أقوم طريق.

مقومات الوحدة الإسلامية:

يجتاز العالم الإسلامي اليوم مرحلة من أسوأ مراحلها، منذ أن بعث الله محمداً ﷺ.

ولقد مرت بالعالم الإسلامي أزمات كثيرة من قبل، بل نكبات كثيرة، كان المسلمون يفقدون فيها تمكّنهم في الأرض، أو يفقدون أمنهم وطمأنينتهم، أو يفقدون ديارهم وأموالهم، ولكنهم مع ذلك لم يخوضوا تجربة أقسى ولا أمر من تجربتهم المعاصرة في تاريخهم كله.

لقد كانت أزمة الردة - مثلاً - أزمة حادة ولا شك، أوشكت أن تهدد الدولة الناشئة وتعوق حركتها وهي في مهدها، ولكن إيمان أبي بكر الراسخ، وثقته العميقة بوعد الله بالتمكين لهذا الدين في الأرض وحساسيته المرفهة أبت عليه أن يترك الخارجين على أمر الله دون أن يسارع في توقيع العقوبة التي أمر الله بإنزالها بهم، كل ذلك قد فعل فعله في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم، فوقفوا صفاً واحداً وراء أبي بكر رضي الله عنه. . . ونصر الله دينه، كما وعد، ولقد كانت فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه وما تلاها من الحروب بين علي ومعاوية، أزمة حادة ابتلي بها المسلمون، والدولة ما تزال في نشأتها وعداوات الأرض قائمة من حولها.

وكذلك كانت أزمة الحروب الصليبية وحروب التتار أزمة حادة في حياة المسلمين، - وبدا - لفترة من الوقت - أنها يمكن أن تطيح بالكيان الإسلامي كله

وتجثت المسلمين من الأرض، ولكن النتيجة الواقعية كانت غير ذلك، وجاء النصر من عند الله في النهاية، وكانت الهزيمة في البدء والنصر في النهاية كلاهما مطابقاً للسنة الربانية التي لا يحيد عنها شيء في الوجود كله، فقد كان واقع المسلمين شيئاً مملوءاً بالمعاصي والبدع والانحرافات والشتات والفرقة، والانشغال بذلك كله عن نصرة دين الله والتمكين له في الأرض، ولذلك اجتاحت جيوش الأعداء أرض المسلمين وأزالت سلطانهم إلى حين، ولكن جذوة العقيدة كانت ما تزال حية في نفوس المسلمين، وإن غشيتها غاشية من التواكل والسلبية أو الانشغال بشهوات الأرض، فما أن جاء القادة الذين يردون الناس إلى الجادة بدعوتهم للرجوع إلى حقيقة الإسلام، حتى صحت الجذوة واشتعلت.. فجاء على أثرها النصر⁽¹²⁹⁾.

ولكن الأزمة التي يعانيها المسلمون اليوم هي أقسى من سابقتها وأمر وإنني على ثقة كاملة في أنها هي الأخرى ستمر، ويمكن الله لدينه مرة أخرى، في الأرض، وأذكر الآن أهم مقومات الوحدة الإسلامية - على سبيل المثال لا الحصر - والتي كان لها الدور الأكبر في توجيه المسلمين وإصلاحهم وإرشادهم، ونهضتهم وازدهارهم، والتي خلقت عالماً مشرقاً جديداً لا يشبه العالم الشاحب القديم في شيء.

وتتمثل هذه المقومات في الآتي:

أولاً - العقيدة الصحيحة:

تعتبر عقيدة التوحيد الصافية الغالبة من أهم مقومات الوحدة بين المسلمين فهي عقيدة نائمة، معجزة متدفقة بالقوة والحياة، مقلبة للأوضاع، مدمرة للآلهة الباطلة لم تنل ولن تنال الإنسانية مثلها إلى يوم القيامة.

ولقد كان الإنسان قبل الإسلام يسجد لأشياء تافهة لا تضر ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب﴾⁽¹³⁰⁾.

(129) واقعنا المعاصر: محمد قطب، طبعة أولى، 1407 هـ 1986 م مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر.

(130) سورة الحج، آية: 73.

كان العرب قبائل متناثرة متنافرة لا تجتمع على شيء على الرغم من وجود كل مقومات التجمع من وحدة الأرض ووحدة اللغة ووحدة الثقافة ووحدة التاريخ، ووحدة التصورات، ووحدة التطلعات.

وقد كان يمكن على أقل تقدير أن يجتمعوا على قضية من القضايا التي يتجمع لها الناس في جاهلياتها، قضية قومية مثلاً لطرد الاحتلال الفارسي، والاحتلال الروماني من أطراف الجزيرة العربية، أو قضية اجتماعية لتقريب الفوارق بين الغنى الفاحش في أيدي فئة قليلة من الناس والفقر المدقع الذي يتسربل به أغلبية الناس. أو غير هذه مما يمكن أن يجتمع له الناس في أطوار معينة من أطوار الحضارات الجاهلية ولكن العصبية القبلية والثرات الدائمة وغارات السلب والنهب، واشتغال كل قبيلة بشؤونها الخاصة جعل التجمع على هذه القضايا الأرضية البحتة أمراً لا يخطر في بال قبيلة من القبائل حتى في فرصة التجمع السنوي في موسم الحج.

من هنالك انتشلهم الإسلام، لا ليكونوا تجمعاً قومياً، ولا ليكونوا تجمعاً وطنياً تحت قيادة زعيم منهم، ليكون منهم دولة موحدة ذات كيان وحدود، ولكن لينشئ منهم أمة العقيدة التي استحققت من الله وصفها بهذا الوصف العظيم: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (131).

والذي يلحظ النقلة الهائلة التي انتقلها العرب من شتاتهم المتناثر ليكونوا خير أمة أخرجت للناس، لا بد أن يأخذه العجب من هذا التحول الهائل في فترة من عمر الزمن كأنها لحظات.

إن العقيدة الإسلامية هي أعلى ما يمكن أن تقوم عليه وحدة المسلمين فهي الوشيجة الحقيقية التي تقوم عليها الأمة الحقيقية.. الأمة الخيرة.. ثم تنضوي تحتها كل العلاقات الأخرى، علاقات الأرض واللغة والجنس وقرباءة الدم، فتكون هذه روافد إضافية إذا وجدت ولكنها لا تكون هي التي تكون الأمة - ولو اجتمعت

(131) سورة آل عمران، آية: 110.

كلها - في غياب العقيدة، بينما تكون العقيدة وحدها - ولو غابت الروابط الأخرى كلها - هي الرباط التي تتكون حوله أمة تتآخي بأخوة العقيدة وتترابط برابط الإيمان فتكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بِنِيَانٍ مَرْصُوصٌ﴾⁽¹³²⁾ والمؤمنون بهذه العقيدة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر يقول الرسول الكريم ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»⁽¹³³⁾.

وروى النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «مثل المؤمنين وتواصلهم وتراحمهم وما جعل الله فيهم من البركة، كمثل الجسد إذا وجع تداعى سائر جسده بالسهر والحمى»⁽¹³⁴⁾.

تلك هي الوشيجة التي نبه القرآن في أكثر من موضع على أنها هي المعتبرة وهي المَعْوَلُ عليها، والتي تفصم الروابط الأخرى وتبقى هي لا تنفصم. فقد جاء في قصة نوح عليه وعلى رسولنا أفضل الصلاة والسلام قوله جل شأنه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي، وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾⁽¹³⁵⁾.

ولقد دعا نوح ابنه - وكان في معزل - ليركب في السفينة الناجية فأبى، فأدركه الطوفان.

(132) سورة الصف، آية: 4.

(133) متفق عليه، انظر: صحيح البخاري، ج 12 ص 46. بعض الاختلاف في اللفظ. وصحيح مسلم ج 16. ص 140 بهذا اللفظ، وأخرجه أحمد في مسنده، ج 4 ص 270 وراجع رقم 40. 41. من أمثال الراهرمزي.

(134) رواه أبو نعيم في تاريخ أصبهان (62/2. 74) وأخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب الأمثال في الحديث النبوي، ص 237. برقم 350.

(135) سورة هود، آية: 45 - 47.

فلما قضي الأمر واستوت السفينة على الأرض وقد نجا من نجا، وهلك من هلك، ملأت الحسرة قلب نوح على ولده الهالك، وراح يسأل ربه كيف غرق وهو من أهله، وقد وعده الله أن ينجي أهله، ووعد الله حق لا ريب فيه؟!

هنا ينبه الله سبحانه وتعالى أن الوشيعة الحقيقية ليست وشيعة الدم.. إنما هي وشيعة العقيدة.. ﴿يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح﴾ وقد انفصمت وشيعة العقيدة حيث أبى الابن أن يؤمن، فانفصمت لها كل وشيعة أخرى، ولم يعد ابن نوح من أهله، مع أنه ابنه كما يؤكد القرآن باللفظ الصريح (ونادى نوح ابنه).

إذا العبرة بأهلية الدين لا بأهلية القرابة، (والغير) في قوله: ﴿إنه عمل غير صالح﴾ عائد على ابن نوح عليه السلام، أي إنه ذو عمل غير صالح، أو أنه لما انغمس في المعاصي كان كأنه عمل غير صالح، من باب وصف الأشخاص بالمصادر مبالغة كما يقال: زيد عدل⁽¹³⁶⁾.

وفي قصة إبراهيم عليه وعلى رسولنا أفضل الصلاة والسلام جاء قوله تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾⁽¹³⁷⁾.

وجاء خطاب الله تعالى للمؤمنين كافة إلى يوم القيامة ناهياً لهم من أن يركنوا إلى قرابة الدم ويتركوا محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله، وينذر الذين يخلون بالموازن الربانية بالعذاب الأليم ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون، قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله، وجهاد

(136) تفسير البضاوي ج 2 ص 310. مكتبة الجمهورية العربية، وانظر: تفسير المنار، للشيخ محمد رشيد رضا ج 12. ص 70 - 71 طبعة الهيئة العامة للكتاب.

(137) سورة الممتحنة، آية: 4.

في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿١٣٨﴾.

ولكن ما أثر هذه العقيدة في وحدة المسلمين؟

هذا السؤال لا بد أن يطرح هنا لأننا بصدد الحديث عن مقومات الوحدة الإسلامية ولأنني ذكرت أن العقيدة هي الأساس الأول في بناء وحدة المسلمين الشامخة.

ولبيان ذلك أقول: إن أثر العقيدة في وحدة المسلمين يتلخص في الآتي:

1 - وحدة الفكر:

إن وحدة الفكر من أهم وسائل توحيد المسلمين، لأن الأمة التي تفكر بطريقة واحدة، وتوجه تفكيرها عقيدة واحدة، لا بد أن تكون غايتها واحدة، والفكر هو أهم جوانب الإنسان، فالإنسان ليس إنساناً بجسمه، ولا هو إنسان بهيئته وشكله، ولكنه في الحقيقة إنسان بعقله وفكره.

إن وحدة الفكر في الأمة تعطي انطباعاً واضحاً عن وحدة الهدف الذي تسعى لتحقيقه وهذه الأمة هي التي دعا إليها الإسلام في قول الله تعالى: ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾ (١٣٩).

وليس المراد بوحدة الفكر هنا المساواة بين أفراد الأمة في درجة الإدراك والوعي وليس المراد بها المستوى الفكري لأفراد الأمة واحداً لأن ذلك يستحيل تحقيقه في مجموعة صغيرة من الناس، فكيف يتحقق في أمة كاملة.

وإنما المراد بوحدة الفكر في الأمة هو وحدة المبادئ الأساسية للأمة في صورة واضحة لكل فرد من أفراد الأمة.

2 - المحبة:

مما هو معلوم أن العقيدة تؤلف بين القلوب، وتشد المؤمنين بعضهم إلى

(١٣٨) سورة التوبة، آية: ٢٤.

(١٣٩) سورة المؤمنون، آية: ٥٢.

بعض فتجعلهم يداً واحدة، وتعلمهم كيف يضحي الفرد في سبيل الجماعة، وكيف يقدم حاجة أخيه على حاجته.

إن هذا النوع من المحبة هو جزء لا يتجزأ من حقيقة الإيمان، وهو الذي لا يتم إيمان المؤمن إلا به، بل هو الذي قال فيه الرسول ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»⁽¹⁴⁰⁾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»⁽¹⁴¹⁾.

إن المحبة القائمة على أساس من العقيدة هي التي تبقى، ولها أثرها الكبير في وحدة المسلمين، ومن أجل هذا كان ثوابها عظيماً وأجرها كبيراً، كما ورد ذلك في كثير من الأحاديث الصحيحة، منها ما رواه أبو هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»⁽¹⁴²⁾ وعن معاذ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر»⁽¹⁴³⁾ من نور يغطهم النبيون والشهداء»⁽¹⁴⁴⁾ وعن أبي إدريس الخولاني قال: جئت إلى معاذ بن جبل من قبل وجهه، فسلمت عليه، ثم قلت، والله إني لأحبك الله، فقال: آله؟ فقلت: الله، فقال: آله؟ فقلت: الله، فأخذني بحبة ردائي، فجبذني إليه، فقال: أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى وجبت محبتي للمتحابين في، والمتجالسين في، والمتزاورين في، والمتبازلين في»⁽¹⁴⁵⁾ وقال: لا يؤمن أحدكم

(140) رواه الإمام أحمد في مسنده، وهو حديث متفق عليه رواه البخاري في صحيحه جـ 1. ص 53. 54. ومسلم في صحيحه برقم 45.

(141) رواه مسلم في صحيحه برقم 54. وأورده النووي في رياض الصالحين، ص 200: 201.

(142) رواه مسلم في صحيحه برقم 2566.

(143) أي يجلسون عليها، والغبطة: تمنى مثل ما للغير من الخير.

(144) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح برقم 2391.

(145) رواه مالك في الموطأ بإسناده الصحيح جـ 2 ص 953 وصححه ابن حبان برقم 2510. والحاكم في مستدركه ووافقه الذهبي، وقال ابن عبد البر إسناده صحيح.

حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» متفق عليه البخاري (53/1) ومسلم برقم (45).

3- التعاون:

قال تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾⁽¹⁴⁶⁾ وقال تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر﴾⁽¹⁴⁷⁾.

إن العقيدة الإسلامية هي المحرك الرئيسي للتعاون بين المسلمين لأنهم يشعرون بقيمة التعاون وما يحققه لهم من الفوائد الكبيرة الملموسة لكل من يتعاون مع إخوانه.

والتعاون بين المسلمين ليس مقصوراً عليهم فحسب، وإنما هو يشمل غير المسلمين ممن يعاشونهم ويتعاملون معهم، لهذا لم ينه الله المسلمين عن بر غير المسلمين والعدل معهم كما قال جل شأنه: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾⁽¹⁴⁸⁾.

ثانياً - العبادة:

ومن مقومات الوحدة بين المسلمين جميع العبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة وأوضح مثال عملي على توحيد المسلمين يتجلى في الحج إلى بيت الله الحرام.

فالرجل الذي لم ير في حياته هندياً ولا صينيّاً ولم يعرف روسياً ولا تركياً، ولم يعامل صومالياً، ولا سنغالياً، كيف نطالبه بأن يفكر في كل هؤلاء وأمثالهم وأن يهتم بشؤونهم وشؤون أقوامهم؟.

(146) سورة المائدة، آية: 2.

(147) سورة العصر، آية: 1، 3.

(148) سورة الممتحنة، آية: 8. وانظر: قواعد البناء في المجتمع الإسلامي، د. محمد السيد الركيل، الوفاء للطباعة والنشر، ط 1. 1407 هـ 1986 م ص 26 فما بعدها.

ألا فقد أبطل الإسلام هذه الحجة، وأغلق الباب أمام هذا الاعتذار، إذ لم يكتف بتقرير هذه الحقائق النظرية، ولكنه وضع إلى جانبها نظاماً دقيقاً إلزامياً، وهياً لتحقيقها فرصة عملية سنوية يجمع بها العالم الإسلامي مركزاً في بقعة واحدة من الأرض.

أتدري ما هذه البقعة؟ إنها المحور الذي تلتف حوله أقطار الإسلام على بعد متناسب من كل جانب، إنها القطب المغناطيسي الروحي الذي تنجذب إليه أفئدة المؤمنين من كل فج عميق، إنها الكعبة، البيت الحرام، ومكة البلد الحرام، ومنى وعرفة، عتبة باب الحرم، ذلكم هو مهد الإسلام في طفولته ومبعث نشاطه في فتوته جعل الله الورود إلى هذا المنهل الأول فريضة حتماً على كل مسلم يستطيع إليه سبيلاً ولو مرة في حياته. وتتجمع الوفود الإسلامية هنالك في كل عام في وقت واحد في صعيد واحد بل في زي واحد، وينشدون جميعاً نشيداً روحياً واحداً، تردده معهم الجبال، والأكمات، فتجاوب أصداؤه في قلوبهم، وتنصهر نفوسهم حتى تعود سبيكة واحدة في بوتقة الشعور المشترك، والوجدان الموحد تلك هي تجربة الوحدة الروحية، تكملها وتتوجها تجربة الوحدة الاجتماعية، ذلك أن الإسلام لم يجعل الحج عبادة وحسب، ولكنه جعله في الوقت نفسه قياماً للناس وموسماً لتبادل مصالحهم، في مختلف وجوهها وأنواعها، بل إنه لأمر ما جعل هذه قبل تلك في معرض بيانه للغاية المنشودة من رحلة الحج، ألا تسمع إلى قول الباري جل شأنه: ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله﴾⁽¹⁴⁹⁾ ما أعجب هذه الكلمة، ما أوجزها، وما أجمعها، إنها لتتناول شؤون الاقتصاد والسياسة، والحرب والقانون، والعرف واللغة والآداب والعلوم، وسائر مقومات الحياة الجماعية التي تتأثر أعظم التأثير بهذا الاتصال والتلاقي، كما تتأثر السوائل بتلاقيها في الأواني المستطرقة فتأخذ في التوازن والتعادل طلباً للوصول إلى مستوى واحد⁽¹⁵⁰⁾ إنه تطبيقاً للوحدة الإسلامية وتبادل المنافع بين المسلمين كان من واجبات الحج بعد أداء مراسمه أن يخلع الناس ثياب عبادتهم المتقشفة وأن يمكثوا هنالك فترة يعودون

(149) سورة الحج، آية: 28.

(150) نخبة الأزهار وروضة الأفكار، د. محمد عبد الله دراز، ص 204. ط 11. قطر.

فيها إلى مجرى حياتهم العادية متكشفاً كل منهم عن زيه ومهنته وجنسه ولهجته، ليتعاملوا ويتشاوروا ويتعاونوا وهم في أوضاعهم الطبيعية، حتى تبرز بينهم صورة هذه الرحلة الإسلامية المختلفة المظهر المؤتلفة الجوهر.

هل فقه الناس إذن مغزى هذه الشريعة؟ وهل أدركوا أن تكرار هذه التجربة كل عام في شكل مصغر، إنما هو دعوة إلى تجربة أمثالها كل آنٍ في نطاق أوسع، وعلى مقياس حقيقي مكبر؟.

ولكن هل يظل المسلمون في مواسم حجهم قانعين بهذا الموقف السلبي الذي لا يعمل فيه إلا العقل الباطن البطيء الفاتر؟ أليس يجب أن يتقدموا خطوة إيجابية توضع فيها الخطط المفصلة لهذه الوحدة الإسلامية الشاملة؟ بلى، لقد آن للأمم الإسلامية أن تخرج من سجن هذه الفرديات المنعزلة، والقوميات المنفصلة إلى محيط الجماعة الكبرى التي يرون منها نموذجاً مصغراً في هذه الرحلة المقدسة فقهنا الله في أسرار شريعته وأدبنا بأدابها. . آمين.

ثالثاً - جانب الأخلاق:

ومن مقومات الوحدة بين المسلمين الأخلاق وهذا الجانب يغفل عنه الكثير. . من المصلحين ومن الدعاة. . مع أنه في ميزان الإسلام يقف إلى جانب العقيدة. . ليقيم الأساس وكيف لا. . والرسول ﷺ يجعلها غاية لابتعائه «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»⁽¹⁵¹⁾ وقد ظل الرسول ﷺ يربي المسلمين عليها مع العقيدة أكثر من نصف حياته «الرسالية» وبالأخلاق انتشرت دعوة الإسلام في أكثر من نصف الأرض التي فتحها الله على المسلمين، لما رأى الناس من أخلاق تجار المسلمين في معاملاتهم.

وقد كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، فلقد ترك القرآن الكريم أثراً عظيماً من التربية في قلب الرسول ﷺ أولاً، ثم في قلوب صحابته ثانياً، ولقد وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها، بأكمل وصف وأدقه حيث قالت: «كان خلقه القرآن»⁽¹⁵²⁾

(151) رواه مالك في الموطأ: (باب حسن الخلق) ج 2 ص 904.

(152) رواه مسلم في صحيحه ج 1 ص 513.

أي كان متخلفاً بتعاليم القرآن السامية في جميع شؤون، في حله وترحاله، في سلمه وحربه، أي كان أنموذجاً حياً للأخلاق يمشي على الأرض وتراه الأعين فمن ثم لا تعجب من تلك الأخلاق السامية والشمائل العالية التي سادت العصر النبوي خاصة، لأن الجميع آنذاك كان يفهم القرآن ويتدبره في شخص الرسول ﷺ، وكان بهذا الخلق الشريف أكرم خلق الله تعالى ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾⁽¹⁵³⁾ ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفی ضلال مبين﴾⁽¹⁵⁴⁾.

وأمرنا الله تعالى أن نقتدي بهذا الرسول في خلقه العظيم: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾⁽¹⁵⁵⁾.

ولئن اختلفت مذاهب العالم في الأخلاق واختلفت فيها اهتماماتهم، فإن السمة الواضحة في هذه المذاهب وتلك الاهتمامات أنهم لا يضعونها في المنزلة التي يضعها الإسلام أساساً مع العقيدة للبناء كله.

ثم هي عندهم ليست نابعة عن عقيدة ولا متصلة بعبادة بينما هي في الإسلام كذلك⁽¹⁵⁶⁾.

فأما نبعها من العقيدة فالأمثلة على ذلك كثيرة وأذكر بعضها:

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة⁽¹⁵⁷⁾ فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك»⁽¹⁵⁸⁾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا

(153) سورة القلم، آية: 4.

(154) سورة الجمعة، آية: 2.

(155) سورة الأحزاب، آية: 21.

(156) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ص 219. د. علي محمد جريشة، ومحمد شريف، دار

الاعتصام، ط 1.

(157) أي: ذا مرق من لحم ودجاج ونحوهما.

(158) رواه مسلم في صحيحه ج 4، ص 202. رقم حديث الباب (142) و (143).

رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه» متفق عليه⁽¹⁵⁹⁾ وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليسكت» متفق عليه⁽¹⁶⁰⁾.
وقوله: «أو ليسكت» قال الشافعي رضي الله عنه: لكن بعد أن يتفكر فيما يريد أن يتكلم به، فإذا ظهر له أنه خير محقق لا يترتب عليه مفسدة ولا يجر إلى كلام محرم أو مكروه أتى به⁽¹⁶¹⁾.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾⁽¹⁶²⁾ وأما اتصالها بالعبادة فإن إتيانها نفسه والاستمسك بها عبادة.

يقول الرسول الكريم - ﷺ -: «إن الرجل ليلبغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم»⁽¹⁶³⁾ وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إلي، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة، الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون» قالوا: يا رسول الله قد علمنا: «الثرثارون والمتشدقون» فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون» رواه الترمذي وقال: حديث حسن⁽¹⁶⁴⁾ وقال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح⁽¹⁶⁵⁾ وعن أبي هريرة

(159) انظر صحيح البخاري جـ 10 ص 370. 371. وصحيح مسلم برقم (46).

(160) البخاري جـ 10 ص 373. ومسلم برقم (47)، وأخرجه أبو داود برقم (5154)، والترمذي برقم (2500).

(161) انظر هامش رياض الصالحين للنووي ص 173.

(162) سورة الرعد، آية: 20 - 22.

(163) رواه أبو داود في سننه برقم 4798 وصححه ابن حبان برقم 1927 والحاكم 6/1. والخرائطي ص 9.

(164) الترمذي برقم (2019) وأخرجه أحمد في مسنده جـ 4 ص 193. و194. وصححه ابن حبان برقم (1917) وعن أبي هريرة عند أحمد جـ 2 ص 369.

(165) الترمذي برقم (1162) وأخرجه أحمد في مسنده جـ 2 ص 450 و472 وسنده حسن وصححه ابن حبان برقم (1311) والحاكم في مستدركه جـ 1 ص 3 وله شاهد من حديث عائشة عند أحمد جـ 6 ص 47 والترمذي برقم (2615) والحاكم 53/1 بلفظ (إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهلهم).

رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله وحسن الخلق» وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «الفم والفرج» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح⁽¹⁶⁶⁾ وقال ﷺ: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق»⁽¹⁶⁷⁾ الحديث.

ثم إنها بعد ذلك تزكو بالعبادة وتربو...

فالصلاة من بين غاياتها تنمية النظام، والطاعة والطهر والنظافة والعفة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾⁽¹⁶⁸⁾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا» متفق عليه⁽¹⁶⁹⁾ وأداؤها في جماعة ينمي روح التعاون والتراحم والود والألفة والوحدة بين المسلمين.

وكذلك الصيام يزكي خلق الصبر، والاحتمال، والإحساس بالفقر والعطف عليه، وينمي في الوقت نفسه مراقبة الله في السر كمراقبته في العلانية، مما يولد التقوى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁽¹⁷⁰⁾.

والزكاة تطهير للنفس من شحها، وتطهير للمجتمع من الأحقاد، وتركبة لأخوة الإسلام والمحبة في الله بين الغني والفقر، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً

(166) الترمذي برقم (2005) وأخرجه أحمد ج 2 ص 291 و 292. و 442 وابن ماجه برقم (4246) وإسناده حسن، وصححه ابن حبان برقم (1923).

(167) أخرجه الترمذي برقم (2003) و (2004) وفي سننه يعلى بن مملك لم يوثقه غير ابن حبان، ولكن أخرج الشطر منه أحمد ج 6 ص 442 و 448 وأبو داود برقم (4799) من طريق آخر وسنده صحيح، وصححه ابن حبان برقم (1921) وأحمد 202/5 وصححه ابن حبان برقم (1974) فالحديث صحيح.

(168) سورة العنكبوت، آية: 45.

(169) انظر صحيح البخاري ج 2 ص 9 وصحيح مسلم برقم (667).

(170) سورة البقرة، آية: 183.

تظهرهم وتزكّهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم» (171).

أما الحج فقد تكلمت عنه فيما مضى وبينت أن فيه تطهيراً من الرّفث والفسوق والجدال وفيه تنمية لروابط الأخوة بين المسلمين وتزكية للوحدة، على الله الواحد والقبلة الواحدة والغاية الواحدة (172).

رابعاً: الاعتصام بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ:

ويعتبر التمسك بكتاب الله تعالى وسنة النبي عليه الصلاة والسلام من أهم مقومات الوحدة بين المسلمين والقرآن والسنة يشملان كل المقومات التي ذكرتها والتي لم أذكرها لأنه لا سبيل لخلاص المسلمين مما هم فيه من تمزق وتشتت إلا بالاعتصام بالكتاب والسنة يقول النبي الكريم ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه ﷺ» الحديث (173).

الخطوات العملية لتحقيق الوحدة الإسلامية:

إن الوحدة الإسلامية هي الطريق الأمثل لعلاج كثير من مشكلاتنا المعاصرة وسوف تحقق هذه الوحدة المنشودة حينما يكون الإسلام هو الموجه والقائد للمجتمعات الإسلامية، في كل الميادين، وكل المجالات مادية ومعنوية ويلزم ذلك أن تكون عقيدة المجتمعات إسلامية وأن تكون مشاعر ونزعات الشعوب وأخلاقيها إسلامية، وتربيتها وتقاليدها إسلامية، وهذا موضوع يحتاج إلى بحث منفرد وحسبنا هنا أن نشير إلى أهم معالم هذه الوحدة. في ضوء تعاليم الإسلام، كما ذكرها الدكتور/ يوسف القرضاوي (174).

1- إحياء المعاني الربانية من الإيمان بالله وتوحيده ومعرفة أسمائه الحسنی وصفاته العليا، والإيمان برسالته، والجزاء الأخروي، باعتبارها أهداف الحياة

(171) سورة التوبة، آية: 103.

(172) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ص 221.

(173) رواه مالك في الموطأ: «باب النهي عن القول بالقدّر» ج 2. ص 208.

(174) انظر: الحل الإسلامي فريضة وضرورة، ص 38 فما بعدها، طبعة ثالثة، ربيع 1397 هـ سنة 1977 م.

العليا، وغايات الوجود الإنساني، والعمل على دعمها وتثبيتها وحمايتها ومحاربة نزعات الإلحاد والشك والشك بكل صوره وألوانه.

2- تربية الأمة على معاني التقوى لله والإخلاص له، والثقة به، والتوكل عليه، وغرس الإحساس الدائم برقابة الله على كل أعمال الإنسان، وإطلاعه على سره ونجواه.

3- تثبيت القيم الأخلاقية الأصيلة التي توارثتها الأمة جيلاً عن جيل مهتدية بكتاب ربها وسنة نبيها، ﷺ، الذي بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق، وإزالة ما تراكم عليها من رواسب عصور التخلف، وما دخل عليها من تقليد الأمم الأخرى قديماً وحديثاً.

4- الاعتزاز برسالة الإسلام، بوصفه عقيدة وشريعة وحضارة، ونظام حياة، أودع الله فيه الكمال والشمول والتوازن والوضوح والعمق، وغرس هذا الاعتزاز في ضمائر الجميع صغاراً وكباراً، بحيث لا يزاحمه نظام أو مذهب آخر للحياة ولا يزاحمه كذلك وطن، أو قومية، أو نعمة من النعمات، فدين المسلم أغلى ما يعتز به ويحرص عليه، وفي سبيله يضحي بكل ما يغالي به الناس من وطن وأهل ونفس ونفيس، ورحم الله القائل:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذ افتخروا بقيس أو تميم
5- المحافظة على شعائر الإسلام، وبخاصة عباداته الكبرى، التي تمثل الأركان العملية كما بينها رسولنا الكريم ﷺ من الصلاة والزكاة والصيام وحج بيت الله الحرام، وتربية جميع أفراد المسلمين على احترامها وتوقيرها. فإن هذه العبادات والشعائر - مع أنها غاية في نفسها - تعد من أعظم الوسائل التربوية لتكوين الأنفس المؤمنة، والأخلاق الفاضلة.

6- إحياء رسالة المسجد حتى يعود إلى سالف عهده، مركز هداية وإصلاح، جامعاً للعبادة ومدرسة للثقافة، ومعهداً للتربية، وندوة للتعاون وبرلماناً للتشاور⁽¹⁷⁵⁾.

(175) انظر: العبادة في الإسلام ص 222 - 224. د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة بيروت - طبعة رابعة.

7- مقاومة البدع والأباطيل التي ألصقت بالدين - على مر القرون - وليست منه سواء كانت في مجال العقائد أم العبادات، أم التقاليد⁽¹⁷⁶⁾ والرجوع بالإسلام إلى وضوحه وبساطته وصفائه الذي كان عليه الصحابة ومن تبعهم بإحسان من أهل القرون الأولى، الذين هم أحسن القرون بشهادة الرسول ﷺ.

8- أن يكون التعليم لجميع الأطفال ذكوراً وإناثاً في كل سني التعليم - إلزامياً، وأن تزال كل المعوقات من طريقه، وأن توضع خطة مدروسة لمحو الأمية المنتشرة في العالم الإسلامي، وأن يشمل التعليم كافة المجالات النظرية والعملية الدينية والدنيوية، والأدبية و«التكنولوجية» وتدرّس الإسلام مادة أساسية في جميع المراحل ومختلف أنواع التعليم، وأن توجه العناية في دراسته إلى المبادئ والأصول التي من شأنها العمل على وحدة المسلمين، ويجب إعادة النظر في مناهج التعليم في كل المراحل، وتوجيه عناية خاصة إلى العلوم الإنسانية: (التاريخ وعلوم النفس والتربية والاجتماع والاقتصاد ونحوها) لما تحتوي عليه من كثير من الأفكار المناوئة للإسلام.

9- يجب أن توضع للبلاد الإسلامية خطة لنظام ثقافي إسلامي موحد غير مزدوج الروح والمصدر بحيث ينشئ عقلية واحدة لكل أبناء الأمة، هي العقلية الإسلامية⁽¹⁷⁷⁾.

10- أن تكون شريعة الله تعالى في جميع بلدان المسلمين هي العليا، ولا تكون كذلك إلا حين لا تكون معها شريعة أخرى، ولا تكون فوقها شريعة أخرى، وأن تمتد الشريعة إلى كل المجالات وتشمل جميع الأنشطة.

ولقد حرص القرآن على التنويه بجعل شريعة الله هي العليا في أكثر من موضع فقله تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾⁽¹⁷⁸⁾ وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(176) انظر في ذلك: الاعتصام للشاطبي، والحوادث والبدع والنهي عنها «والمدخل لابن الحاج» و«الإبداع في مضار الابتداع» للشيخ علي محفوظ، وليس من الإسلام للشيخ محمد الغزالي.

(177) انظر: كتاب الفكر الإسلامي المعاصر، محمد المبارك، فصل المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي، ص 131 وما بعدها.

(178) سورة التوبة، آية: 40.

آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴿١٧٩﴾ . ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم﴾ ، وأنتم لا تشعرون ﴿١٧٩﴾ .

الآية الأولى تعني لا تقدموا بين يدي الله ورسوله، أي لا يكن لكم رأي ولا شرع ولا نظام فوق شرع الله ورسوله... وهو ما بيناه بأن تكون شريعة الله هي العليا أما الثانية فهي تحرم رفع الصوت فوق صوت النبي .

وليس من المعقول أن يحرم رفع الصوت مادياً فوق صوت النبي، ويجوز رفعه معنوياً بجعل شرع أو رأي فوق شرع النبي ﷺ، بل يمكن أن نقول إن كل عمل مخالف لما جاء به هذا الرسول الكريم ﷺ يعتبر مخالفاً لأمر الله تعالى، الذي جعل طاعة رسوله من طاعته، كما قال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (١٨٠) وقال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ (١٨١).

ومن هنا كان لا بد لتحقيق الوحدة الإسلامية، أن تكون الشريعة الإسلامية هي العليا لا شريعة معها، ولا شريعة فوقها.

11- أن تربي هذه الأمة على أنها أمة واحدة تهدي إلى الحق، وتعدل بين الناس جميعاً على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وبقاعهم، قال تعالى: ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ (١٨٢).

وهذه الأمة التي جعل الله لها الخيرية على سائر الأمم جعلها بحقها وشروطها وهي إن قامت فيها هذه الشروط كتب الله لها الخلود.

لقد بقيت الأمة الإسلامية رغم المحن والأزمات، ورغم تقلبات الحكم والحاكم بقيت بحمد الله حافظة لكتاب الله محفوظة بعناية الله، حتى لقد صرح ما قاله أحد الأئمة من أن العصمة في الإسلام للأمة لا للإمام، وصرح أن نقول إن الأمة

(179) سورة الحجرات، آية: 1: 2.

(180) سورة النساء، آية: 80.

(181) سورة النجم، آية: 3، 4.

(182) سورة الأعراف، آية: 181.

الإسلامية كانت بعد الكتاب العزيز من أكبر آيات الله العزيز الحميد فلو أن أمة أخرى تعرضت لما تعرضت له الأمة الإسلامية من كيد وبطش وعسف لما كان لها اليوم وجود⁽¹⁸³⁾.

والأمة الإسلامية وإن كانت اليوم تبدو مفككة ضعيفة، فإنها تحمل عناصر الابتعاث.

وهي في ابتعاثها لا تحتاج إلى وقت طويل، وقد أدرك ذلك بعض المستشرقين فقالوا وحذر منه.

ومن سمات هذه الأمة التي تؤكد وحدتها في نهاية المطاف - إن شاء الله - ما يأتي:

فهي أولاً: آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر: ولا يمكن أن تأمر بمعروف ولا تأتبه، أو أن تنهى عن منكر وتأتبه ففقد الشيء لا يعطيه، فأمرها ونهيها يعني أنها تقيم هذا المعروف وتلفظ المنكر.

وهي ثانياً: تؤمن بالله: وإيمانها بالله يعني أنها تقوم على التوحيد، ولا تقارب بين توحيد وتثليث، ولا تقارب بين توحيد وشرك.

وهي ثالثاً: تقوم مع التوحيد على الوحدة: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾⁽¹⁸⁴⁾ وهذه الجنسيات وهذه الحدود دخیلة عليها... ليست من أمر الله في شيء، والأمة الواحدة هي التي انتصرت من قبل.

ولقد رفض رسول الله ﷺ عصبية الجاهلية، وقال: «دعوها فإنها منتنة ورفض المنادة بالعصبية بين الأنصار والمهاجرين»، حين نادى أحدهم يا للأنصار ونادى الآخر يا للمهاجرين فغضب رسول الله ﷺ عليه غضباً شديداً وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟»⁽¹⁸⁵⁾.

(183) انظر: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ص 244 وسراج الملوك للعلامة أبي بكر محمد بن الوليد طبعة سنة 1311 هـ وهامش مقدمة ابن خلدون ص 66.

(184) سورة الأنبياء، آية: 92.

(185) انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ج 1 ص 431. المكتب الإسلامي الطبعة الرابعة

1407 هـ 1987 م.

ونزل القرآن الكريم يؤكد قول الرسول الكريم ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ، وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَتْلُوا عَلَيكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾⁽¹⁸⁶⁾.

وهكذا كانت الفِرقة والجَنسيات والحدود.. جاهلية أو كفراً.

وكانت الوحدة أخت الإيمان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾⁽¹⁸⁷⁾.

وامتدح الرباط الذي وحد الأمة في كتابه، فقال عن المهاجرين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾⁽¹⁸⁸⁾.

وقال تعالى عن الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾⁽¹⁸⁹⁾.

وهكذا قامت دولة الإسلام الأولى تضم كل من قال: لا إله إلا الله، بغير تفرقة لوطن أو جنس وبغير اعتراف بحدود أو جنسية.

وإن شاء الله سوف تقوم هذه الدولة الواحدة لتجمع أمة الإسلام تحت راية القرآن الكريم وسنة محمد بن عبد الله ﷺ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبيه وآله وصحبه وسلم.

= وانظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز جـ 3 ص 243 لابن عطية الأندلسي الطبعة الأولى رجب 1402 هـ مايو 1982 م، الدوحة، قطر.

(186) سورة آل عمران، آية: 100 و 101.

(187) سورة آل عمران، آية: 102 و 103.

(188) سورة الحشر، آية: 8.

(189) سورة الحشر، آية: 9.